# التفاؤل والتشاؤم

إعداد
نجيب بدوي

الكتاب: التفاؤل والتشاؤم

الكاتب: نجيب بدوي

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www.bookapa.com **E-mail:** info@bookapa.com



دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

بدوي، نجيب

التفاؤل والتشاؤم / نجيب بدوي

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٠٣ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٦ – ١٠٧ – ٩٩١- ٩٧٧- ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ٢٣٦١ / ٢٠٢١

# التفاؤل والتشاؤم



# مقدمة

التطير هو التشاؤم من علامات الفأل الرديء مثل: البومة والغراب والمرآة المكسورة ورقم ١٣ وغير ذلك من العلامات التي يعتبرها المتطيرون نذر سوء ويتوجسون منها الشر. ويقابل علامات الفأل الرديء، علامات أخرى للفأل الحسن، مثل: التعاويذ وحدوة الفرس والقط الأسود وخمسة وخميسة... وغيرها من العلامات التي تبعث على التفاؤل.

والتطير من هذه الرموز والعلامات وأشباهها ظاهرة قديمة كانت معروفة منذ أقدم العصر، كما أنها ذائعة الانتشار بين كثير من الشعوب، وبصفة خاصة بين الشعوب البدائية، كما لا تخلو منها تمامًا المجتمعات الحديثة الراقية.

ولفظ التطير مشتق من عادة زجر الطير. فقد كان العرب في الجاهلية يزجرون الطير (أي يصيحون به أو يرمونه بحجر)، فإن ولاهم في طيره ميامنة سموه سانحًا وتفاءلوا به، وإن ولاهم مياسرة سموه بارحًا وتشاءموا منه.

والدراسة العلمية لأي ظاهرة، تبدأ بتحديد موضوعها. والتطير ظاهرة محددة يمكن التعرف عليها، وتصلح للعزل والدراسة. والمقصود من التطير في هذا البحث هو التشاؤم من نذر السوء وعلامات النحس،

والتفاؤل من بشائر الخير وعلامات السعد.

وللطريقة العلمية خطوات محددة: تبدأ بجمع أمثلة عن الظاهرة المراد دراستها، ثم تصنيف هذه الأمثلة وتحليلها ومقارنتها، لاستخلاص النتائج منها في النهاية. وإذا كنا في البداية قد اتبعنا الطريقة المقارنة في دراسة هذه الظاهرة، فجمعنا أمثلة للتطير، وقمنا بتبويبها، فقد وجدنا أننا نحتاج في تفسيرها وتحليلها إلى الاستعانة بطرق البحث في العلوم الاجتماعية والنفسية، وذلك لأن التطير ظاهرة اجتماعية ونفسية في آن معًا.

وهذا الكتاب هو محاولة لدراسة التطير دراسة علمية من واقع أمثلته.

والله ولي التوفيق

المؤلف

# الفصل الأَول
# الأمثلة الشائعة للتطير

بعد أن جمعت أمثلة كثيرة للتطير، وأطلت النظر فيها، تبينت أنها تختلف فيما بينها من حيث النوع، ومن حيث الدرجة. واستطعت تصنيف حالات التطير في ثلاث فئات متدرجة في الشدة: حالات خفيفة – وحالات متوسطة – وحالات مرضية. وتتنوع أمثلة التطير، كما يختلف تفسيره وطريقة اكتسابه في كل حالة من هذه الحالات، على النحو المبين في الفصول التالية. ونبدأ في هذا الفصل بالحالات الخفيفة من التطير.

أبسط أنواع التطير هو الفال، أو التفاؤل من الكلام الذي يسمع من الغير اتفاقًا، كأن تكون مريضًا فتسمع: يا سالم، فتتفاءل به، كما أن كلام الأطفال الذي يصدر عنهم عفوًا قد يكون لمن يسمعه ذا وقع حسن. وقيل في ذلك: "خذوا فالكم من عيالكم". وقد يوضح المثال التالي التفاؤل بالأسماء. حكى أن سعد بن أبي وقاص وجه إلى عمر رضى الله عنهما رسولا، فلما جاءه قال: ما اسمك؟ قال: ظفر. قال ابن من؟ قال: ابن قريب. قال: ظفر قريب إن شاء الله. وقد يدل هذا الكلام على اللباقة وحسن الاستقبال أكثر مما يدل على التفاؤل فعلا بالأسماء.

وقد يكون التطير من الوجوه. فمن الناس من يتساءل: "اصطحبت بوش مين؟" كلما صادفه نحس في يومه. ومنهم من يستبشر بوجه صبوح ويتفاءل به. وفي الأمثال العامية يقال: "يا قاعدين يكفيكم شر الجايين" للأنحاس المناكيد. كما يقال: "الخير على قدوم الواردين" لمن يستبشرون بهم من أصحاب الطلعة الميمونة وأقدام السعد.

يحكى أن بعض ملوك الفرس خرج إلى الصيد، فأول من استقبله أعور فضربه وأمر بحبسه، ثم ذهب للصيد فاصطاد صيدًا كثيرًا، فلما عاد استدعى الأعور فأمر له بمال، فقال: لا حاجة لي به، ولكن ائذن لي في الكلام، فقال: تكلم، فقال: أيها الملك إنك تلقيتني فضربتني وحبستني، وتلقيتك فصدت وسلمت، فأينا أشأم صباحًا على صاحبه!

وقد يكون التطير من الأوقات والأيام، فيقال إن في يوم الجمعة ساعة نحس. أما يوم الأربعاء "فيوم نحس مستمر، فيه أغرق قوم نوح، ودمرت ثمود وأصحاب الرس، والحوائج فيه منحوسة عن طريق الفأل، فلا تخرج في طلب حاجة".

وقد يكون التطير أو التفاؤل من الأرقام. فهناك أرقام مثل رقم ٧ ورقم ١٣ اكتسبت دلالات قديمة في الميثولوجيا والفولكلور واقترنت بارتباطات سارة أو مؤلمة. فيتفاءل بعض الناس برقم ٧ وهو رمز قديم في الأساطير والأديان. وله علاقة بالأزمنة والأوقات. فالأسبوع سبعة أيام. ويتحكم في حياة الإنسان دورات من سبع: فقد يولد الطفل بعد سبعة أشهر، ويعطى اسمًا في "السبوع"، وتظهر أسنانه في الشهر السابع

وتتجدد في السنة السابعة... ولهذا الرقم دلالات أخرى قديمة منها: الكواكب السبعة، والسماوات السبع، والبقرات السبع والسنابل السبع في قصة يوسف. ومن الأرقام التي تبعث على التطير رقم ١٣، ولذلك فهو مكروه، ويحذف عادة من أرقام حجرات الفنادق. ويقال في تعليل التشاؤم من رقم ١٣ إنه يرمز إلى يهوذا الذي خان السيد المسيح في قصة العشاء المقدس، وكان ترتيبه الثالث عشر. وقد ندم أشد الندم على خيانته فانتحر.

وقد يكون التفاؤل والتشاؤم من الألوان. فاللون الأبيض يبعث على التفاؤل، ويقترن بالفرح والسرور. واللون الأسود يبعث على التطير، ويدل على الحداد والحزن. واللون الأزرق من أكثر الألوان التي تبعث على التفاؤل بعد اللون الأبيض. أما اللون الأحمر فيدل على الحياة والحب والسرور والثراء. واللون الأخضر يرمز للحيوية والخصوبة، كما أن الخضرة هي لباس أهل الجنة. واللون الأصفر يدل على المرض، وعند أهل الغرب يدل على الجبن. وهذه هي الدلالات العامة المتعارف عليها التي تقترن بالألوان الأساسية. وقد تكون الألوان دلالات ذاتية خاصة تختلف من شخص إلى آخر تبعًا لاختلاف الأمزجة والأذواق وما يفضله كل شخص ويميل إليه من الألوان.

## التطير من الرموز والتطير من الأعمال:

يجب أن نميز في هذه الحالات الخفيفة من التطير، بين التطير من الرموز والأشياء والعلامات من ناحية، والتطير من الأعمال من ناحية أخرى. فمن أمثلة التطير من الرموز الاعتقاد في علامات الفأل الحسن، وعلامات الفأل الرديء. ومن أمثلة علامات الفأل الحسن: التعاويذ – حدود الفرس– فرس النبي – القط الأسود – خمسة وخميسة، السلحفاة – الحمامة – كعب الأرنب... وغير ذلك من العلامات التي يعتبرها المتطيرون بشائر خير ويتفاءلون بها. ومن علامات الفأل الرديء: البومة – الغراب – رقم ١٣– المرآة المكسورة – المداس المقلوب.....

وغير ذلك من العلامات التي يعتبرها المتطيرون نذر سوء وعلامات للنحس. وهذه الرموز سواء أكانت من علامات السعد أو علامات النحس كلها رموز خارجية.

أما التطير من الأعمال، فمن أمثلته: التشاؤم من فتح المظلة داخل المنزل –ترك المبراة مفتوحة– كنس المنزل ليلا– تحريك المقص سريعًا في الهواء دون أن يقص شيئًا– الدخول على السيدة المتزوجة حديثًا أو التي قامت من الوضع بمصاغ من الذهب أو بعقد من العقيق أو بلحم نيء أو بباذنجان... وهو ما يعرف عند العامة (بالكبس)، والاعتقاد بأن ذلك يؤدي إلى جفاف لبن الأم أو يحدث لها العقم. والتطير من هذه الأعمال من سمات أشخاص نقابلهم في الحياة اليومية العادية:

فإذا جاء ترتيب أحدهم الثالث، رفض أن يشعل سيجارته من نفس العود. وإذا سكب الملح على المائدة، تناول المتطير قليلا منه بين أطراف أصابعه وألقى به من خلف كتفه اليسرى. وإذا صادفه في طريقه سلم خشبي مسند إلى الحائط امتنع عن المرور من أسفله ودار حوله...

ويقابل هذه الأعمال التي يمتنع المتطيرون عن إتيانها ويتوجسون منها الشر، أعمال أخرى مرغوبة ودلالتها مقبولة. فإذا عثر المتطير في طريقه على قطعة من النقود المعدنية الصغيرة احتفظ بها إلى حين لاعتقاده أنها تجلب له الحظ. وإذا سكبت القهوة سهوًا على ملابسه، فهي علامة أنه سيحصل على كسوة جديدة. وإذا نبش القط البساط بمخالبه فهذه علامة على أن ضيوفًا سيحضرون.

هذه أمثلة للحالات الخفيفة من التطير، وهي مأخوذة من العرف والتقاليد. وتكتسب بالإيحاء أو بالمحاكاة عن الوالدين خاصة ومن البيئة المنزلية عامة. وذلك لأن الطفل الذي يشب في أسرة تعتقد في هذه الخرافات، يتعود مجاراتها فيما تعتقد، وخصوصًا أن الوالدين لا يقدمان تفسيرًا مقبولًا لاعتقاداتهم، ولا يحاولان تعليل ما يبدر منهما من سلوك ينطوي على التطير. ومعنى ذلك أننا نأخذ الاعتقاد في هذه الخرافات عن آبائنا كما ننقل عنهم الجهل بأسبابها وعدم معرفة تعليل معقول لها.

ولو سألت المتطير من هذه الأعمال لما عرف لتطيره سببًا، لأن هذه التطيرات يتوارثها الناس على مر الأجيال دون أن يعرفوا منشأها. وكثير من هذه التطيرات يرتبط بمعتقدات قديمة. وغالبًا ما يكون لهذه

التطيرات أسباب ومبررات، ولكنها نسيت بمضي الزمن، وظلت بقاياها في معتقدات الناس دون أن يدركونا لتصرفاتهم وسلوكهم سببًا.

ومن الأمثلة على ذلك: التشاؤم من تحطيم المرآة. ومنشأ هذا التطير اعتقاد قديم هو أن خيال الإنسان في المرآة أو على صفحة الماء أو ظله على الارض هو روحه، وأن ما يحدث للصورة المنعكسة أو للظل، يحدث كذلك لذات صاحبها. فإن أصابت الصورة أو الخيال ضربة أو طعنة، ألمت بصاحبها نفسه وعاناها، وقد صور هذا الاعتقاد ببراعة في قصة "صورة دوريان جراى".

وقد نسجت حول هذا الاعتقاد الذي شاع بين كثير من الجماعات البدائية طائفة كبيرة من الأمور المحرمة التي تبعث على التطير. ومن أمثلتها اعتقاد الزنوج في أعالي النيل أن التمساح قد يخطف الروح أو الظل المنعكس على صفحة الماء، فيموت صاحبه. ويتطير الهنود الحمر من النظر إلى صورتهم المنعكسة على الماء، خوفًا من أن يخطف شيطان الماء أرواحهم، ويتركهم بدون أرواح فيفنون.

وكان الفراعنة يعتقدون أن انعكاس الصورة في الماء أو فوق زجاج المرآة يمثل الروح أو ما كان يسميه قدماء المصريين "بالقرين". وبذلك يكون تحطيم المرآة نذيرًا بتحطيم الروح وفراقها للجسد. ولهذه المعتقدات نظائر في المجتمعات الحديثة.

ومن الأمثلة على ذلك حرص اللحاد على ألا يقع ظله على تابوت الميت عند إغلاقه، أو على قبره عندما يهيل عليه التراب. وإذا مات أحد

أفراد أسرة محافظة، فإنهم يديرون المرايا ويجعلون وجهها إلى الحائط، وذلك لأن أراوح الموتى تنسب إليها القدرة على خطف أرواح الأحياء التي يغلق عليها مع الميت في التابوت أو القبر، أو التي تنعكس في المرايا.

ويتطير أهل الريف من نزول المرأة الحائض في حقل مزروع بالخضر كحقل طماطم أو حقل باذنجان، ويعتقدون أن ذلك يؤدي إلى تلف المحصول وبوار الأرض. وهم يتطيرون من النجاسة بصفة عامة. ومنهم من إذا أهمل الاغتسال، وصادفه في يومه نحس أو كارثة أو خسارة، نسبها إلى عدم طهارته. بل إنهم في الريف ينسبون وقف الحال وقلة البركة عند أصحابها إلى عدم طهارتهم. وقد استخدم الاغتسال والاستحمام منذ أقدم العصور وعند كثير من الشعوب للتطهر من الذنوب. والاغتسال ولا شك أمر محمود، والنظافة شيء ضروري ومرغوب فيه في حد ذاته، ولكن التهاويل من أمر النجاسة، وطقوس التطهر المعقدة وتكرارها بصورة رتيبة، قد تجعل الاغتسال أحيانًا نوعًا من الوسواس المتسلط.

والاعتقاد في أثر الاغتسال في صلاح الحال وراحة البال وكشف الكروب وذهاب الهموم، اعتقاد قديم راسخ. ويصور النابلسي هذا الاعتقاد تصويرًا بليغًا في الدلالة القديمة التي تنسب للاغتسال في الأحلام. فيقول في كتابه "تعطير الأنام في تعبير الأحلام": "من رأى أنه اغتسل ولبس ثيابًا جددًا، فإن كان مريضًا شفاه الله تعالى، وإن كان مدينًا

قضى الله دينه، وإن كان محبوسًا نجا من حبسه، وإن كان مهمومًا فرج الله عنه همه، وإن كان فقيرًا أغناه الله تعالى، وإن كان تاجرًا أو سوقيًا وقد تعسرت عليه تجارته وسوقه وكسبه جود الله تعالى تجارته وسوقه وأذهب عنه وهمومه... فإن أيوب عليه السلام حين اغتسل ولبس ثيابًا جددًا، رد الله تعالى عليه أهله وأولاده وكل ما ذهب عنه".

وقلما تكون بداية التطير من شيء من الأشياء أو من عمل من الأعمال خبرة فردية حدثت لشخص معين، ولكن غالبًا ما يكون منشأ التطير خبرة جماعية. ولنضرب لذلك مثلا هو الامتناع عن المرور من تحت سلم الحائط الخشبي. قيل في تسويغ التطير من ذلك، إنه يرجع إلى بضعة قرون مضت، عندما كانت أحكام الإعدام تنفذ بشنق المجرم بحبل يربط إلى شجرة قريبة. وفي المدن كان يستخدم السلم الخشبي بأن يسند إلى الحائط، ويتدلى منه حبل يشنق به المجرم. ولا يجسر أحد على المرور من تحت السلم لأنه لا يريد أن يقترب من أي شيء يتصل بفكرة الإعدام. ومن هنا نشأ الامتناع عن المرور من تحت السلم الخشبي المسند إلى الحائط. واتبع الناس هذه العادة، دون أن يدركوا سببها أو منشأها.

## الاقتران:

يُمكن تفسير كثير من علامات الفأل والطيرة على أساس الاقتران. فالبومة من أشأم الطيور وأبعثها على التطير. وهي مكروهة وتطارد بقسوة لا لقبح نعيقها، ولا للرهبة التي تبعثها الهالتان المستديرتان حول عينيها،

بل لأنها من طيور الليل التي لا تبصر إلا في الظلام، فتأوى بالنهار إلى الجهات المهجورة الخربة، حتى صارت كنيتها "أم الخراب". واقترنت البومة كذلك بالقبور. فمن المعتقدات القديمة أن الإنسان إذا مات أو قتل تتصور نفسه في صورة طائر، وتصرخ على قبره مستوحشة لجسدها. والطائر هو البومة. وبذلك وجد ارتباط أو اقتران البومة والأماكن الخربة والقبور، فأصبحت رمزًا للخراب وعلامة على النحس، ومثيرة أو داعية للتشاؤم.

والغراب من أعظ ما يتطير به أهل الريف. والقول فيه أكثر من أن يطلب عليه شاهد. فهم يتطيرون من اسمه وقبح شكله ونعيقه وحركاته. فاسمه مكروه لأنه يدل على الغربة، ونعيبه يدل على مصيبة، وإذا نبش في الأرض دل على الخراب ودفن الموتى. واعتبر الغراب شؤمًا لأنه – منذ بدء الخليقة – اقترن في القصص الدينية بارتباطات مشئومة. ففي قصة قابيل مع هابيل: "فبعث الله غرابًا يبحث في الأرض ليريه كيف يوارى سوءة أخيه". كما أن نوحًا بعث الغراب ليعرف له أمر الماء فوجد جيفة طافية فوقع عليها واشتغل بها ولم يرجع، فأرسل الحمامة فأتته بورقة خضراء فدعا لها.

والقط الأسود يتفاءل به كثير من الناس، ويعتقدون أنه يجلب لهم الحظ. وإذا عبر طريقهم واتجه إلى اليمين، فهو بشارة خير ومدعاة للتفاؤل، أما إذا اتجه إلى اليسار فهو نذير سوء وعلامة على النحس. واقترن القط في التراث الميثولوجي بارتباطات كثيرة. والمصريون القدماء

هم أول من استأنس القط. وقد عبدوه كإله، وحنطوه بعد موته ودفنوه في مقابر للقطط، ومعه فيران صغيرة محنطة. والقط الفرعوني تمثال مشهور لقط أسود، له قيمة فنية وتاريخية، بصرف النظر عن مغزاه عند المتطيرين. ونسب القدماء إلى القط قدرة غيبية، ولذلك امتنعوا عن إيذائه. ولا يزال بعض العامة يعتقدون أن القط يتقمص عفريت الميت أو أن روح الميت تتناسخ فيه، ولهذا الاعتقاد نظير في المعتقدات الخرافية التي كانت سائدة في أوربا في العصور الوسطى، ومنها أن الشيطان يتجسد في شكل قط. كما أن العلاقة وثيقة في هذه المعتقدات بين القطط والساحرات. فقد تتحول الساحرة إلى قط، أو يصحب الساحرة شيطان تابع في شكل قط. وتستخدم الساحرة جمجمة القط في الأعمال السحرية.

ويفسر الاقتران كذلك التفاؤل بحد الحصان، وهي ذائعة الانتشار في معظم أنحاء العالم، إذ يعتقد كثير من الناس أن حدوة الحصان تجلب الحظ الحسن، وتمنع الحسد، وتبعد الأرواح الشريرة، وتقي من الأمراض ومن فعل السحرة، ولذلك تسمر عادة فوق أبواب المساكن، وكانت تسمر كذلك على ساريات السفن الشراعية. وقيل إن نلسن علق حدوة حصان في أعلى سارية السفينة فيكتوريا في معركة الطرف الأغر. ويقال في تعليل التفاؤل بها إنها اقترنت بمولد السيد المسيح في الإسطبل أو في مذود البقر.

## التفسير الجنسي لرموز التطير:

يُمكن أن نطلق على تفسير رموز التطير وعلاماته على أساس الاقتران: "التفسير الوظيفي"، وهو التفسير الذي يسترشد بدلالة الرموز في التراث الميثولوجي. ويقابل التفسير الوظيفي للرموز: "التفسير المادي" لها الذي ينادى به علماء النفس التحليليين. والتفسير المادي للرموز تفسير جنسي. ويقول رجال التحليل النفسي إن كثيرًا من التعاويذ ورموز الفأل الحسن عبارة عن رموز جنسية. فمن الرموز الجنسية المؤنثة حدوة الحصان، والدليل على ذلك أن الألمان يقولون في لغتهم الدارجة على من فقدت بكارتها: إنها فقدت حدوة حصانها. وكثيرًا ما تصنع التعاويذ على شكل حدوة فرس أو حذاء دقيق. والحذاء أو الشبشب والمنزل والدبلة كلها رموز جنسية مؤنثة. ومن الرموز الجنسية المذكرة المظلة والمقص والمبراة المفتوحة وترمز كلها لعضو التذكير. وعلى ذلك يكون فتح المظلة داخل المنزل رمزًا للعملية الجنسية. ولكن لماذا يعتبر فألا رديئًا وعملًا محرمًا؟ قد تكون رمزًا للاتصال الجنسي بالمحارم. ومن الأعمال التي تبعث على التطير تحريك المقص في الهواء دون أن يقص شيئًا، وقد يرمز إلى الجنسية الذاتية (نظرًا لعدم وجود موضوع) أي إلى العادة السرية. أما سكب الملح سهوًا على المائدة، فيسهل إدراك دلالته إذا عرفنا أن الملح رمز للمني. وعلى ذلك قد ترمز هذه الظاهرة التي تبعث على التطير إلى الاستمناء. وخمسة وخميسة وهي أصابع اليد الخمسة المخضبة بالحناء أو الدماء المبصومة على الحائط، من علامات

الفأل الحسن، وتعتبر تعويذة ضد الحسد، وقد ترمز من طرف خفي إلى اليد التي تمارس العادة السرية. أما المداس المقلوب، والمرور أسفل السلم الحائطي فقد يرمزان للشذوذ الجنسي.

والرموز الجنسية فكرة موجهة في التحليل النفسي، يستخدمها رجاله في تفسير الأحلام وفي علاج الأمراض النفسية كما يطبقونها في كثير من المجالات. والحقيقة أن تفسير التحليل النفسي للتعاويذ ولرموز التطير بأنها رموز جنسية يعتبر تفسيرًا جزئيًا. وللتحليل النفسي مساهمات أخرى أصيلة وآراء نافذة في تحليل الدوافع اللاشعورية للتطير، وسنشير إليها في الفصول التالية.

## أثر المهنة في التطير:

للمهنة دخل كبير في القابلة للتطير. وكلما تدخلت عناصر المصادفة والحظ في مهنة كان احتمال قابلية أصحابها للتطير كبيرًا. ولذلك يأتي في مقدمة المتطيرين المحاربون والصيادون والمقامرون.

فالجندي في الميدان يحمل قلبه بين يديه. وللحظ والمصادفة دخل كبير في رسالته، فرصاصة طائشة قد تودي بحياته، وحركة شاردة قد تكون فيها نجاته.

والصياد كذلك من أكثر الناس اعتمادًا على المصادفة والحظ، ولا تغنيه مهارته في الصيد إذا لم يجد ما يصيد. فالصيد مورد غير مضمون ولا ثابت للرزق، لأنه يتوقف على عوامل ليس إلى التحكم فيها من

سبيل. فهناك أوقات يمتنع فيها عن الصياد الصيد أو يحفل منه، وأوقات أخرى يواتيه الحظ فيلتقي بصيد سهل المنال.

كذلك يعتمد المقامر اعتمادًا مطلقًا على الحظ، ويؤمن بالقدرة المطلقة لتوقعه، ويلتمس النتائج من أيسر السبل وهو احتمال الكسب الذي ينسبه بافتخار إلى نفسه. أما الخسارة فينسبها إلى سوء الحظ. لأن لعب القمار لا يخضع لأي منطق، وإنما هو متوقف على المصادفة والحظ.

ومن مظاهر التطير حمل التعاويذ. وقد تكون التعويذة حجابًا أو خاتمًا أو قلادة أو تمثالًا دقيقًا أو غير ذلك. ويحمل كثير من المحاربين والصيادين والمقامرين هذه التعاويذ معهم لا يفارقونها ولا تفارقهم لاعتقادهم أنها تجلب لهم الحظ وتدفع عنهم الضرر.

ومن الملاحظ أن أكثر الناس تطيرًا هو من وجد نفسه في نعمة لا يستحقها، ويخشى أن تزول.. هو من أوتى الحظ الحسن، فحالفه نجاح سريع، أو أصاب ثروة من طريق سهل، أو تولى منصبًا كبيرًا بغير جدارة. إنه يتوقع دائمًا أن يدفع الثمن. ويشفق من تغير الحال وغدر الزمان. ويخاف من شيء غامض مجهول يخبئه له القدر. كرد فعل لما حالفه من حظ حسن ونجاح سهل أخل بتوازنه النفسي. ولذلك فهو يخاف من الحسد، ومن "قر" الناس، ويتوخى الحرص والحذر، ويتوجس الشر، لأن لكل فعل رد فعل مساويًا له ومضادًا في الاتجاه. ويكون مثله كمثل من أكل من الفاكهة المحرمة، فإنه يتوقع العقاب على هذا الإثم أو الذنب،

عقابًا يأتيه على شكل شر ونحس يتربص به ويتهدده، وكأنه القصاص العادل. وإذا أصابه مكروه، أو ألمت به كارثة، قال إنه كان يعرف أنها آتية لا ريب فيها، وإنه كان ينتظرها ويتوقعها، ويعلم أن شيئا من هذا القبيل سيحدث. وأعرف تاجرًا من أغنياء الحرب، بدأ من لا شيء، وجمع ثروة طائلة من تجارة البصل... كان شديد التطير حتى إنه أغلق على نفسه باب منزله، وامتنع عن مقابلة الناس في يوم جمعة وافق ١٣ من الشهر.

## أثر البيئة في التطير:

ليس التطير ظاهرة فردية فحسب بل إنه ظاهرة اجتماعية كذلك. فالتطير إن كان من سمات بعض الأفراد العاديين الذين نقابلهم في الحياة اليومية، فإن رموزه وعلاماته تستمد غالبًا من العرف والتقاليد السائدة في المجتمع. وكلما زاد انتشار المعتقدات الزائفة في مجتمع، زاد احتمال تعلق أفراده بأهداب الخرافات. وخير شاهد على ذلك هو الجماعات البدائية التي تنتشر بينها الخرافات والتطورات والمحظورات، ويعيش أفرادها في رعب دائم من الغيبيات. ويمكن القول بصفة عامة إن التعلق بأهداب الخرافات والخضوع لسطوة الغيبيات أكثر انتشارًا بين المجتمعات التي تعيش على الصيد والزراعة منه بين المجتمعات التي تعيش على الصناعة. كما أن الاعتقاد في الغيبيات والإيمان بالخرافات كان أكثر انتشارًا في العصور القديمة منه في العصر الحديث. ولذلك نلاحظ أن الرموز التي تبعث على التطير رموز قديمة، ويجب ألا نتوقع

التطير من رموز أو أشياء أدخلتها المدنية الحديثة. وتعتبر قلة الخرافات والمعتقدات الزائفة في مجتمع ما دليلا على تقدمه، كما يعتبر انتشار الخرافات في مجتمع آخر دليلا على تأخره.

وهذا القول الذي يصدق على المجتمعات. يصدق كذلك على الأفراد. فاعتقاد الفرد في الخرافات يخرجه من عداد الأسوياء. ويعتبر التطير من السمات غير السوية. فالشخص السليم لا يتطير ولا يتشاءم. والحالات المتطرفة من التطير تدخل في عداد الحالات الشاذة أو المريضة. والحق أن الأعراض الشاذة التي تصيب شخصية الأفراد بالانحلال والتفكك، قد تصيب كذلك المجتمع الذي يتكون من مجتمع الأفراد، لأن المجتمعات لها خصائص الترابط والتكامل بما يشبه تكامل الشخصية في الأفراد. وقد تصاب شخصية المجتمع بالأعراض التي يصاب بها الأفراد. كما أن أمراض المجتمع قد تنتقل بالعدوى إلى الأفراد.

والتطير كان له ما يبرره في العصور القديمة لأنه يتفق مع الحالة العقلية التي كانت سائدة، ويتمشى مع ما ساد في هذه العصور من جهل وتأخر واعتقاد في الخرافات. أما في العصر الحديث فلم يعد له محل بعد كل هذا التقدم في العلوم، وبعد تفجير الذرة وارتياد الفضاء.

# الفصل الثاني
# طريقة اكتساب التطير

الأمثلة الشائعة التي ورد ذكرها في الفصل الأول لعلامات الفأل الحسن وعلامات الفأل الرديء، كلها من الحالات الخفيفة من التطير. وجميع الرموز والعلامات في هذه الأمثلة عبارة عن رموز خارجية. ويكتسب التطير من هذه الرموز والعلامات بالتقليد والمحاكاة من البيئة المنزلية ومن التقاليد. ويلعب الاقتران دورًا هامًا في تفسير اكتساب هذه الرموز والعلامات الخارجية دلالات خاصة ميمونة أو مشئومة، وإن كان أصحاب التحليل النفسي يعتبرون بعض هذه الرموز رموزًا جنسية.

وأشد من الحالات الخفيفة للتطير من الرموز الخارجية الحالات المتوسطة للتطير من الرموز الداخلية، التي تبدو في الأكال والاختلاج. والأكال هو (هرش) كف اليد أو بطن القدم. والاختلاج يكون في مختلف أعضاء البدن من الرأس إلى القدم ولكنه يبدو بصفة خاصة في (رف) العين. وهذه الرموز والمنبهات الداخلية التي تبدو في الأكال. والاختلاج رموز خاصة ذاتية. وفيها يقرن المتطير بين الرموز والنتيجة ويرتب على ظهور الرمز نتائج معينة يترقب حدوثها. فإذا شعر المتطير بأكال في راحة يده اليمنى توقع أن يقبض نقودًا بيمينه، أو توقع أن يسلم على آت من سفر. وإذا اختلجت (رفت) عينيه اليمنى فإنها بشارة خير.

أما عينه اليسرى فهي نذير شؤم. وإذا أحس بطنين في أذنه اليمنى توقع أن يسمع نبأ سارًا، أما طنين الأذن اليسرى فينبئ عن السوء والكدر. ولليمنى من كل هذه الرموز الداخلية توقعات. ولليسرى توقعات أخرى وهكذا.

هذه الحالات لا يستقيم تفسيرها على أساس الإيحاء أو المحاكاة وحسب، نظرًا لاختلاف المتطيرين من هذه العلامات بشأن مغزاها وما يتوقعونه منها، وعدم اتفاقهم على دلالة المنبه أو الرمز الواحد: فالبعض منهم يتخذه بشير خير ويتفاءل به، والبعض الآخر يتخذ نفس هذا الرمز نذير سوء ويتشاءم منه. كذلك لا يفسر لنا الإيحاء لماذا تكتسب بعض الرموز والعلامات مغزى خاصًا عند بعض المتطيرين، على حين أن رموزًا وعلامات أخرى لا يلتفتون إليها وليس لها عندهم أي مغزى.

## الفعل المنعكس الشرطي والتطير:

نستطيع أن نُفسر هذه الحالات على أساس اكتساب الفعل المنعكس الشرطي. ويمكن اعتبار التطير من الرموز والمنبهات الداخلية من قبيل الاستجابات المكتسبة الشرطية. وكلما شاءت المصادفة أن يقبض المتطير نقودًا بعد ن شعر بأكال في راحة يده اليمنى، أو أن يسمع خبرًا سارًا كما أنبأته بذلك عينه اليمنى، رسخ الاعتقاد في صدق هذه النذر أو البشائر. والمعول عليه في تكوين هذه الاستجابات الشرطية للعلامات والرموز هو تكرار اتفاق المصادفة، ومطابقة النتائج لدلالة الرموز، وتكرار ما يبدو من تحقق ما سبق له أن توقعه. وهنا يدخل عامل المصادفة. فظروف الموقف لا تحتمل إلا واحدًا من اثنين: أن تأتي

النتيجة إيجابية أو أن تأتي سلبية، أن تكون أو ألا تكون، أن تأتي بخير أو تأتي بشر. فنسبة المصادفة ٥٠%. ويترتب على تكرار ظهور رمز معين مرتبط بحادث سعيد لشخص ما أن يصير هذا الفعل المنعكس الشرطي رمزًا للتفاؤل. ويترتب على تكرار ارتباط الرمز أو المنبه بالنتيجة السارة أن يصبح بمجرد ظهور الرمز أي المنبه الشرطي داعيًا أو مثيرًا للتفاؤل. وكذلك يترتب على تكرار ارتباط هذا الرمز نفسه أو غيره من الرموز عند شخص آخر بحوادث نحس، أن يصبح هذا الرمز مثيرًا للتشاؤم. فإذا (رفت) عينه اليسرى ثم صادفه في يومه ما يكدره، أصبح (رف) العين اليسرى رمزًا مرتبطًا بحوادث نحس، ومنبهًا شرطيًا يتوجس منه الشر، ونذيرًا بالسوء، وباعثًا على التشاؤم.

وتكاد هذه الحالات تنطبق انطباقًا تامًا على تجربة (بافلوف) المشهورة التي استطاع بها أن يوجد عند كلبه ارتباطًا شرطيًا بين دق الجرس وتقديم الطعام، ترتب عليه سيل لعاب الكلب لمجرد سماعه دق الجرس. ودق الجرس هو المنبه الشرطي أو الرمز، ويقابله في أمثلة التطير منبه شرطي أيضًا هو النذير أو البشير. وسيل لعاب الكلب يقابله التشاؤم أو التفاؤل. أما تقديم الطعام –وهو المهم والمعول عليه– فيقابله تحقيق الحادث فعلا واتفاق النتيجة مع ما تعارف عليه المتطير من تطيره بسعد أو بنحس. وقد يكون تحقيق الحادث فعلا باعثًا إيجابيًا هو بمثابة الجزاء الذي يساعد على رسوخ الاعتقاد.

ولا تقف المقابلة بين اكتساب التطير والفعل المنعكس الشرطي عند هذا الحد، بل إن تعدد الرموز التي يعتبرها المتطيرون بشائر خير أو

نذر سوء، يقابله في تجارب (بافلوف) تنوع المثيرات (السمع– الرؤيا– الشم– اللمس) التي تمكن بواسطتها من إيجاد استجابة شرطية واحدة هي سيل اللعاب وكما أن الفعل المنعكس الشرطي يثبت بالتكرار، فكذلك يؤدي تكرار اتفاق المصادفة مع المتطير بحدوث ما يتوقعه من تطيره، إلى توثيق الارتباط الشرطي وتثبيته، فيجعله يجزم أن عينه لا تكذب أبدًا. ولا يتعرف المتطير عادة إلا على الحادث الذي يتفق مع ما يتوقعه من تطيره. فهو يترقب مثل هذا الحادث من دون الحوادث الكثيرة التي تمر عليه في يومه ويتهافت في التعرف على أية بادرة أو سانحة تؤيد توقعه. في حين يميل المتطير إلى أن يسقط من حسابه الحوادث التي أخلفت ظنونه وينساها وقد لا يتعرف عليها أصلا.

وإذا كان الفعل المنعكس الشرطي يقوى بتكرار الارتباط بين النتيجة والرمز، فإن تكرار عدم الارتباط بين النتيجة والرمز يؤدي إلى انفصام عرى الارتباط الشرطي وزواله. فالكلب الذي يتعلم إفراز اللعاب عند سماع قرع الجرس، بعد أن كان قد قدم له الطعام عدة مرات مقترنًا بقرع الجرس، يتعلم أيضًا عدم إفراز اللعاب إذا قرع الجرس عدة مرات بدون أن يتأيد هذا المنبه الصناعي، بتقديم الطعام وهو المنبه الطبيعي لإفراز اللعاب. وعلى ذلك فإن تكرار عدم الارتباط بين النتيجة والرمز يؤدي إلى زوال الاستجابة المكتسبة الشرطية للتطير. فالرموز التي لا تتأيد بالنتائج المرجوة منها، تصبح رموزًا عقيمة.

قد يبدو لنا أن نتساءل عن دوافع الاختلاج والأكال. فما السبب في حدوث هذه المنبهات الداخلية؟ قد يكون رف العين والأكال في

راحة اليد من قبيل الأفعال المنعكسة غير الخاضعة للإرادة. وقد يكون لها دوافع لا شعورية نتيجة لمواقف الترقب والتوقع وما قد يصاحبها من قلق وتوتر. وقد تظهر هذه المنبهات نتيجة للمخاوف. وبذلك يبدو وكأنما لا يصادف المتطير حوادث النحس كنتيجة لأن نذير السوء هو أن عينه الشمال (رفت)، وإنما (رفت) عينه الشمال لأنه توجس الشر من قبل. وقد تكون هذه المنبهات نتيجة للرغبات، وبذلك لا تأتي النقود لأن المتطير شعر بأكال في راحة يده اليمنى، وإنما شعر بهذا الأكال لحاجته الملحة إلى نقود! وكلما تصادف ورود النقود بعد ذلك، وتكرار اتفاق المصادفة، أضيفت توكيدات جديدة للارتباط الشرطي تزيده تثبيتًا.

**بعض التجارب:**

الشرطان اللازمان لتكوين الاستجابة المكتسبة الشرطية هما: الجزء من الموقف الذي يرمز للموقف كله، والتكرار للتثبيت والاستجابة للرمز أي للجزء من الموقف الذي يرمز للموقف كله، طريقة ثابتة ومؤكدة بالتجربة، ويعرفها الذين يربون الدواجن والحيوانات. وتستخدم في تدريب الحيوانات وترويضها على القيام بأعمال معينة أو على ألعاب السيرك. فنحن نتعجب عندما نرى الدب مثلا يرفع رجليه الأماميتين لدى سماعه لدقة معينة على الطبل. يتم ترويض الدب على هذه الحركة بربطه أو وضعه فيما يشبه البرميل، ثم تلسع رجليه الأماميتين بالنار، في الوقت الذي يدق فيه الطبل بطريقة معينة. يستجيب الدب للمنبه الطبيعي وهو لسع النار برفع رجليه الأماميتين إلى أعلى، في الوقت الذي يستمر فيه دق الطبل. وبذلك يصبح مجرد سماع دق الطبل "نذيرًا" باللسع بالنار.

وبتكرار هذا العمل مرات عديدة، يتعود الدب الاستجابة للرمز وحده، أي للمنبه الصناعي، وهو دق الطبل، بالوقوف ورفع رجليه الأماميتين. ثم يقدم له بعد ذلك طعامه المفضل على سبيل الجزاء الذي يساعد على ثبيت الاستجابة المكتسبة الشرطية.

وبنفس الطريقة يدرب الفارس الصقر الذي يعاونه في الصيد على الوقوف على ذراعه اليمنى. يضع قطعة صغيرة من اللحم في كف يده اليمنى. ويرفع ذراعه ويثنيها عند الكوع لتصير في محاذاة الكتف، فيحط الصقر على ساعده لكي يلتقط اللحم من كفه. وبتكرار إطعام الصقر بهذه الطريقة، يتعود الاستجابة للفارس كلما رفع ذراعه على هذا النحو، فيسارع بالوقوف عليها طمعًا في الجزاء.

وتفسر الشرطية كذلك التطير من الأعمال، أي الامتناع عن إتيان أعمال معينة خوفًا مما قد يترتب عليها من نتائج ضارة أو خطرة. ويمكن على سبيل المثال تفسير التطير من إشعال ثلاث سجائر بعود واحد من الثقاب على أساس الشرطية. يُقال في تعليل التطير من هذا العمل إنه يرجع إلى أيام الحرب العالمية الأولى عندما كان الجنود يمضون أوقاتًا طويلة في الخنادق. وعندما يشعل ثلاثة منهم سجائرهم بعود واحد من الثقاب، كان ثالثهم يصاب برصاص الأعداء. وذلك لأن عود الثقاب المشتعل يكون في الليل هدفًا تراه خطوط الأعداء. وفي المدة التي يشعل فيها الأول والثاني سجائرهم يكون العدو قد أحكم التصويب فيصيب الثالث. وأدى تكرار هذا الحادث إلى نشوء هذا التحريم أو التطير.

وهناك أمور محرمة ينعقد إجماع كثير من الناس على التطير منها ويمتنعون عن إتيانها، وهي أمور متعارف عليها لأنها مستمدة من التقاليد السائدة في المجتمع. وقد تأيد بالتجربة إمكان تكوين استجابة جماعية للأمور المحرمة. ووصل المجرب إلى عمل تجربة عن تثبيت الإحساس بالمحرم لدى مجموعة من القرود بالطريقة الآتية:

علق إصبع موز في رأي عمود بعيدًا عن متناول جماعة من القرود في قفص. وعندما تسلق واحد منها العمود، وأمسك الموز، أطلقت مياه ساخنة على أرض القفص، فتضايقت جميع القرود ما عدا ذلك الذي كان متسلقًا العمود يأكل الجائزة التي حصل عليها. ولم يتطلب الأمر منهم وقتًا طويلًا ليتعلموا سبب فيضان الماء في القفص. وسرعان ما كان يعاقب كل قرد يحاول الصعود لأخذ الموز. فالفاكهة المشتهاة كانوا ينظرون إليها بافتنان من بعيد، وأصبحت محرمة على كل القرود في القفص. وهذا الموقف يوضح طبيعة كثير من محرماتنا الاجتماعية، ويبين كيف أنه حتى في المواقف المعقدة يمكن القيام بها تجريبيًا ودراستها. (نقلا عن: ج.ب. جيلفورد "ميادين علم النفس").

ولا يفوتنا أن نلاحظ توافر الدافع في جميع هذه التجارب والأمثلة، فهو شرط ضروري لتكوين الاستجابة المكتسبة الشرطية. وقد يكون هذا الدافع هو الجوع أو الخوف أو الدوافع اللاشعورية التي كشف عنها التحليل النفسي. فعندما يتوافر أحد هذه الدوافع، يمكن إحداث التطير من أحد الرموز أو العلامات بطريقة تجريبية. ويشترك الإنسان مع الحيوان في هذه القدرة على الاستجابة للرمز والامتثال له. ويدل إمكان تكوين

استجابة للرمز أو تكوين استجابة مكتسبة شرطية المرة تلو الأخرى بطريقة تجريبية على أن التطير صفة مكتسبة، وأنه يمكن أن يكون له أكثر من نشأة واحدة.

## الاختلاف والتشابه في رموز التطير وعلاماته:

لكل شعب رموزه وعلاماته الخاصة التي يتفاءل بها أو يتطير منها. وتختلف رموز التطير وعلاماته من شعب إلى آخر، فالرموز والعلامات التي تتطير منها الجماعات البدائية، تختلف عن الرموز والعلامات التي كان يتطير منها أهل العصور الوسطى. كما أن سكان شمال أوربا يتطيرون من رموز وأعمال تختلف عما يتطير به سكان جنوب شرق آسيا. ونحن نعلم أن الشرق له تطيرات خاصة، والغرب له تطيرات أخرى. فمن التطيرات التي وصلت إلينا من الغرب –ولم يكن لها في الشرق نظير – التطير من المرور من تحت سلك الحائط الخشبي، والتطير من إشعال ثلاث سجائر بعود واحد من الثقاب، والتطير من انسكاب الملح على المائدة، ولمس الخشب حتى لا ينطوي الكلام على الحسد. ومن بين التطيرات التي ظلت حية في تراثنا الميثولوجي منذ أيام قدماء المصريين: التطير من القط الأسود، ومن المرآة الكسورة. ومن الرموز المسيحية حدوة الحصان ورقم ١٣. ومن العادات التي كانت شائعة عند العرب في الجاهلية: زجر الطير والتفاؤل بسانحه، والتشاؤم من بارحه.

وإلى جانب الرموز والعلامات الخاصة بكل شعب من الشعوب، والتي تختلف من شعب إلى آخر، هناك رموز أخرى وعلامات متشابه، والتطير منها ذائع الانتشار في معظم أنحاء العالم، مثل التفاؤل بحدوة

الحصان وكعب الأرنب، والتشاؤم من البومة والغراب. فكيف يمكن تفسير هذا التشابه؟ وهل نشأ التطير من رمز من الرموز أو من عمل من الأعمال في مكان واحد، ومنه انتشر إلى جهات أخرى، أو أنه يمكن أن يكون لمثل هذا التطير أكثر من نشأة واحدة؟

ليس من شك في أن التطير من بعض الرموز أو الأعمال يمكن أن ينتشر من مكان إلى آخر بالتقليد والمحاكاة. وقد يفسر هذا الانتقال التشابه في بعض رموز التطير وعلاماته الذي نجده في أماكن متباعدة وأزمان مختلفة. ومن ناحية أخرى، يمكن أن يكون للتطير كذلك أكثر من نشأة واحدة، فقد أثبتت تجارب الفعل المنعكس الشرطي. والتجارب التي أجريت على القردة، إمكان تكوين استجابات معينة للرموز، أو اكتساب التطير من الرموز المرة تلو الأخرى بطريقة تجريبية، متى توافر الدافع والمنبه الطبيعي، والمثير الصناعي أو (الرمز)، والجزاء. وبذلك قد يكون التشابه في بعض رموز التطير وعلاماته، بين الشعوب المختلفة وفي العصور المختلفة، مرجعه إلى طبيعة العقل البشري الذي يستجيب للمؤثرات المتشابهة بطريقة واحدة، وقد يكون مرجعه إلى المصادفة وحدها.

# الفصل الثالث
# التحليل النفسي للتطير

لا تعني معرفة طريقة اكتساب التطير بالفعل المنعكس الشرطي عن دراسة دوافعه اللاشعورية التي كشف عنها التحليل النفسي. ولذلك يجب أن نضيف إلى ميكانيزم اكتساب التطير على أساس الفعل المنعكس الشرطي، الدوافع اللاشعورية له. وقد أسهم فرويد وتلاميذه من رجال التحليل النفسي في الكشف عن الدوافع اللاشعورية للتطير بدراسة الأفعال أو الحركات العرضية Symptomatic Acts؛ وقبل أن نتناول تفسير فرويد للتطير، بندأ بتحليل بعض أمثلة للتطير من الأفعال أو الحركات العرضية.

## العثرة:

يتطير كثير من الناس من العثرة أو زلة القدم، ويعتبرونها نذير سوء ويتوجسون منها الشر. ويقولون: من خرج فعثر فلا يذهبن في تلك الحاجة وليؤخرها. وينصحون من كان على سفر وتعثر أو زلت قدمه بأن يعدل عن السفر. والعثرة التي تبدو وكأنها حادث غير مقصود وقع سهوا، ليست في الواقع ظاهرة اتفاقية، بل إن لها معنى وترمى إلى غرض. ولهذا الفعل في رأي التحليل النفسي دوافع لا شعورية هي التردد والإحجام وتوجس الشر، أو تنم عن دوافع أخرى خاصة تنتمي للحياة اللاشعورية لمن تعثر أو زلت قدمه.

والتطير من العثرة اعتقاد قديم وذائع الانتشار. ومن الأمثلة المشهورة التي يرويها التاريخ لهذا النذير، أن وليم دوق نورماندى عندما وطئت قدمه لأول مرة شاطئ إنجلترا، زلت قدمه لأول مرة شاطئ إنجلترا، زلت قدمه وتعثر، فتطير من ذلك أتباعه. وما تطيرهم في رأي التحليل النفسي إلا "حالة نفسية أسقطت في العالم الخارجي" فقد جاء تعثره مطابقًا لما يخالج نفوس أتباعه من رهبة وإشفاق من مصير الحملة المعلق في كفة القدر. ومعنى ذلك بقول آخر هو أن دلالة النذير الخارجية –وهي الإشفاق من الفشل– هي ذاتها الدلالة اللاشعورية، على التردد وتوجس الشر.

ويحسن المتطير صنعًا إذا عدل عن السفر لعثرته. فالعثرة أو زلة القدم على وجود شك وتردد وتوجس للشر من السفر، وهو أمر غير مأمون العاقبة لمن كان على سفر. فكثير من حوادث التصادم أو السقوط التي تبدو قضاء وقدرًا، لا ترجع للمصادفة، بل يكون لها دوافع لا شعورية، وتنطوي على حتمية وسبق إصرار، وتتم طبقًا لخطة موضوعة لا شعوريًا. وقد تكون الرغبة في العقاب، دافعًا إلى تعريض النفس للخطر في حوادث السقوط أو الاصطدام. وليس بمستغرب أن نجد من صدر عنه هذا الفعل العرضي وهو العثرة، يسهم بنفسه لا شعوريًا في جلب النتيجة المتوقعة. وقد يؤدي استمرار وجود الدافع إلى حدوث ما لا تحمد عقباه، فيقع للمتطير حادث يقول الناس فيه إنه قضاء وقدر، مع أنه محتم أو مقدر لا شعوريًا. فالدافع اللاشعوري يؤدي إلى العثرة،

واستمرار هذا الدافع قد يؤدي إلى حدوث مكروه. وفي حالة الجهل بالدافع يبدو كأن التطير من العثرة كان له ما يبرره، كما لو كان نذيرًا.

## ضياع الدبلة:

يتطير بعض الأزواج والزوجات من ضياع خاتم الزواج أو الدبلة، ويوجسون من أن يكون ذلك نذيرًا بوقوع الطلاق. ويعتبر أصحاب التحليل النفسي ضياع الدبلة حركة عرضية لها دوافع لا شعورية، وتنم عن الرغبة في التحرر من هذا القيد، قيد الزواج أو الدبلة. وعلى ذلك فالدلالة الخارجية المتوقعة من هذا النذير، هي ذاتها اللاشعورية. ولا يرجع ضياع خاتم الزواج إلى المصادفة، وإنما يبدو أن هناك نوعًا من الحتمية لحالة نفسية في الحركة العرضية التي عبرت عن دافع داخلي هو الرغبة في الطلاق. فلو لم يكن أحد الشريكين راغبًا في الطلاق، لما أضاع خاتم الزواج سهوًا وبدون قصد. وليس بمستغرب أن يشترك في جلب النتيجة المتوقعة فعلا من صدرت عنه مثل هذه الحركة العرضية. وعلى ذلك قد يكون للتطير من فقدان الخاتم ما يبرره، إذا عمل الزوج الذي أضاع الخاتم على إتمام الطلاق، فالدافع يوجد الحركة العرضية، واستمرار وجود الدافع يساعد على تحقيق ما يتوقعه المتطير من تطيره. وفي حالة الجهل بالدافع يبدو وكأن النذير تحقق. وعلى ذلك لن تطلق زوجتك لأنك أضعت الدبلة، ولكنك أضعت الدبلة لرغبتك في الطلاق.

## الكاسورة:

إذا استعصى هذا العنوان على القارئ، فليذكر المثل العامي القائل: "لولا الكاسورة ما كانت الفاخورة". فالكاسورة هي الأواني أو الأوعية المكسورة. ويتطير كثير من الناس من حوادث كسر الأواني. ويتشاءمون من القلة المكسورة أو المرآة المكسورة. فما قول التحليل النفسي في الكاسورة؟

لا يعتبر فرويد كسر الأواني سهوًا، مصادفة. ولا هي —في رأيه— غير مقصودة، بل إنها أفعال عرضية لها دوافع لا شعورية. فالحوادث التي تكسر فيها الأكواب والأطباق، والتي يظن أنها حدثت سهوًا، إنما هي حوادث موجهة، ولها دوافع لا شعورية، ويرمي كل حادث منها إلى غرض. وتتفاوت هذه الدوافع وتلك الأغراض من حالة إلى أخرى. وتكثر حوادث كسر الأواني والأكواب في المنزل في فترات ومناسبات خاصة يسهل على من يتأملها أن يجد لها في الحقيقة دوافع وأسبابًا. فلابد أن تكون هناك علاقة بين كثرة كسر الأطباق والأكواب من يد خادم صغيرة، وإساءة معاملتها. والسيدة التي تتسم بالاتزان من الناحية الانفعالية قلما تكسر شيئًا.

ويستدل فرويد من الأمثلة التالية على أن كسر الأواني يحدث في ظروف وملابسات خاصة، ويحقق أغراضا معينة:

قد يكون كسر غطاء المحبرة الزجاجية القديمة سهوًا مثلًا نتيجة للرغبة في الحصول على محبرة أخرى جديدة. وقد يتلف شخص سهوًا

أو يفقد الأشياء أو الهدايا التي سئ منها، ويريد عذرًا يبرر به حصوله على غيرها. فإذا كسر الطفل قلمه الحبر أو ساعته أو أضاعها قبيل عيد ميلاده مباشرة، فهل يمكن اعتبار ذلك محض مصادفة؟ أم حدث ذلك لأنه يتوقع إهداءه بهذه المناسبة هدايا جديدة بدلا مما أتلف أو فقد.

وقد يكون الغرض من كسر الأشياء الثمينة التضحية والفداء والشكر للقدر الذي منع أو أبعد بلايا أخرى أكثر جسامة. فقد يحمل كسر تمثال ثمين سهوًا معنى الفداء والتضحية لنجاة قريبة عزيزة من موت محقق لولا لطف القضاء. وبذلك يبدو كسر التمثال الثمين عفوًا بمثابة الشكر للقدر على إنقاذ حياة هذه القريبة العزيزة. ويؤيد هذا التفسير ما يقال في الأمثال العامية على أثر كسر الأواني سهوًا: "خدت الشر وراحت".

وقد يكسر الشخص أو يفقد الأشياء أو الهدايا التي أعطاها إياه شخص تخاصم أو تشاجر معه، ولم يعد يرغب في رؤية أي شيء يذكره به.

وقد يكون الغرض من كسر آلة أو جهاز سهوًا، الرغبة في الاستراحة. فقد يكسر العامل سهوًا الآلة المكلف بإدارتها، ليحصل على فترة راحة، حتى ولو بدا كسر الآلة خطأ غير مقصود.

وفي الكاسورة تبدو الحالات الخفيفة من الهفوات العقلية، وهناك حالات متطرفة، كحوادث تصادم السيارات أو انحرافها أو السقوط أثناء رياضة تسلق الجبال، والتي تبدو وكأنها قضاء وقدر مع أنها أحيانًا لا تكون محض مصادفة بل محتمة وأقرب إلى عقاب الذات أو الانتحار.

ومجمل القول أن حوادث كسر الأواني والأوعية التي تحدث عفوًا، والتي تبعث على التطير، لها دوافع لا شعورية، وتبدو وكأنها محتمة. وتختلف الحتمية للحالة النفسية من حادث إلى آخر بحسب الظروف السابقة لحدوثه، وما يحيط بكل حادث من ملابسات.

وإذا أمكننا القول بأن جميع رموز التطير وعلاماته إنما هي محض خرافات، فإننا لا نستطيع أن نقول في الأفعال العرضية كالعثرة وضياع الدبلة والكاسورة التي تحدث سهوًا وبدون قصد، إنها خرافات. فالتطير من هذه الحركات له ما يبرره، لأنها حركات ذات مغزى ولها دوافع لا شعورية. وليس بمستغرب أن يؤدي استمرار وجود هذه الدوافع إلى تحقيق المتوقع منها. وقد يسهم المتطير بنفسه لا شعوريًا في تحقيقها.

## تفسير فرويد للتطير:

يعرف فرويد الشخص المتطير بأنه من يتخذ من الأحداث الخارجية علامات يضفي عليها مغزى ومعنى، ويتخذ منها بشائر خير يتفاءل بها أو نذر سوء يتشاءم منها –كعادة العرب في زجر الطير، وكالنذر التي يرويها لنا التاريخ. ويرى فرويد أنه طالما لا توجد علاقة بين الشخص المتطير والحادث الخارجي (النذير)، تكون المسألة مصادفة لا أكثر. ولكن الحالة تختلف تمامًا عندما تصدر عن الشخص أفعال عشوائية أو أخطاء غير مقصودة (مثل العثرة وضياع الدبلة). وهذه لا يعتبرها فرويد مصادفة بل إن لها دلالة، إنها أفعال الدافع إليها لا شعوري تحتاج إلى تفسير.

وعلى ذلك يختلف فرويد عن الشخص المتطير فيما يأتي: إنه لا يؤمن بأن أي حادث خارجي لا يشترك فيه ذهنه يعلمه أي شيء عما يخبئه له القدر في المستقبل. ولكنه يعتقد أن أي حادث عشوائي أو خطأ غير مقصود صدر عنه لابد أن يحتوي على شيء مخبأ في نفسه ينتمي إلى حياته العقلية وحدها.

فهو يعتبر حقيقة المصادفة في الأشياء الخارجية —ولكنه لا يعتبرها في الأشياء الداخلية (النفسية). أما مع الشخص المتطير فالحالة على عكس ذلك: إنه لا يعلم شيئًا عن دوافع الحوادث العشوائية ومع هذا يميل إلى أن يضفي على حوادث المصادفة الخارجية معاني، ويرى في حوادث المصادفة المحضة الخارجية وسائل للتعبير عن أشياء مخبأة خارجة عن ذاته (أي غيبية). فيوجد حينئذ وجهان للخلاف بين فرويد والشخص المتطير:

أولًا: المتطير يفسر الدافع على أنه من الخارج، بينما ينظر فرويد إلى الدافع في نفسه.

ثانيًا: المتطير يفسر الحادث بالمصادفة accident بأنه واقعة event بينما يرجعه فرويد إلى فكرة وما يعتبره المتطير مخفيًا يقابله عند فرويد اللاشعور.

ونظرًا لأن الشخص المتطير لا يعرف شيئًا عن دوافع الأفعال العشوائية والأخطاء غير المقصودة التي تصدر عنه، ونظرًا لضرورة تعرفه هذه الدوافع، فإنه يضطر إلى التخلص منها بأن ينسبها إلى العالم

الخارجي. مع أن الدافع إلى هذه الأفعال لا شعوري وأنها نتيجة لوجود نزعات وميول ورغبات كبتت في اللاشعور لأنها لا تتفق مع آداب المجتمع وتقاليده ولكنها لم تخمد ولم تفقد القدرة على الظهور بل ظلت حية تتحين الفرصة للإفلات من الرقيب والإفصاح عن نفسها في الأعمال العشوائية والسهو والخطأ.

ويذكر فرويد أن التطير كان له ما يبرره في العصور القديمة وكان متفقًا ومتمشيًا مع الحالة العقلية التي كانت سائدة وقتئذ. أما الآن فلا محل له في المجتمع الحديث بعد كل هذا التقدم في العلوم. فسلوك الرجل الروماني الذي رأى سربًا من الطير فاتخذه نذير سوء وتشاءم منه، له ما يبرره نسبيًا لأنه يتفق مع الحالة العقلية التي كانت سائدة وقتئذ. ولكن لو أن هذا الروماني عدل عن مشروع لأن قدمه تعثرت سهوًا في عتبة الباب، فإنه يكون أفضل منا نحن التحليليين، لأن زلة قدمه تدل على التردد والشك أو على إقباله على عمل وهو كاره له.

ومن دراسة فرويد للدوافع النفسية المختفية بواسطة التحليل النفسي، اتضحت له الدوافع اللاشعورية التي تظهر في التطير "إن التطير منشؤه الدوافع العدائية القاسية المكبوتة، فالجزء الأكبر من التطير ينم عن الخوف من شر مستطير. فمن يتمن الشر لغيره، ولكنه يضطر إلى كبت هذه النزعة الشريرة في اللاشعور نتيجة لحسن تربيته، فإنه يتوقع العقاب على هذا الشر المكبوت، عقابًا يأتيه على شكل شر ونحس يتهدده من الخارج".

وفي هذا التفسير يتناول فرويد ناحية التشاؤم. إلا أن للتطير —كما

هو معروف– ناحيتين: علامات للسعد، وعلامات للنحس. ويتفاءل المتطير بالأولى ويتشاءم من الثانية.

يتبقى إذًا ناحية التفاؤل، أي عندما يتخذ الشخص المتطير بشائر للخير يتفاءل بها. فهل يمكن –قياسًا على تفسير فرويد –أن نقول إن التفاؤل شيمة من يتمنى الخير للغير، وأن من أحب لغيره ما يحب لنفسه توقع أن يرتد إليه الخير فيستبشر به ويتفاءل له؟

## علاقة التطير بالشخصية:

إذا صح ذلك، فإنه قد يكون من الممكن إضافة التطير إلى الصفات المزاجية والخلقية التي تميز الشخصية. فلو أمكن الوصول إلى طريقة لقياس التطير باختبار أو استبيان، يضم إلى اختبارات الصفات المزاجية والخلقية، لأمكن إضافة التشاؤم والتفاؤل إلى نماذج الحالات النفسية التي تميز الشخصية التي قام بتصنيفها يونج، كأن يقال إن المنطوي أميل إلى التشاؤم، والمنبسط أميل إلى التفاؤل. وكما أنه لا يمكن القول بذلك ما لم نصل إلى طريقة لقياس التطير، فكذلك تقع البينة على من يدعى عكس ذلك.

فأمامنا إذن حدث خارجي هو النذير أو البشير من ناحية، واستعدادًا لتفسيره بحسب الصفات المزاجية والخلقية ونوع الشخصية من ناحية أخرى (فالبعض يتفاءل من رقم ١٣، والبعض الآخر يتشاءم منه – ويتفاءل البعض من القط الأسود، ويتشاءم البعض الآخر منه –كما لا يخفي أن كثيرين لا يبالون ولا يكترثون ولا يقيمون لهذه العلامات وزنًا). يضاف إلى ذلك أن للمهنة والبيئة والسن دخلًا كبيرًا في القابلية للتطير.

وهذه كلها بعض الاعتبارات التي ينبغي أن تؤخذ في الحسبان عند عمل الاختبار المشار إليه.

وإذا وضعنا مستوى تقديريًا من ١–٥ لسمتي التفاؤل والتشاؤم كما تبدوان في التطير، بحيث تمثل العاديين، وإذا افترضنا أن توزيع مجموعة من الناس على هذا المستوى، سينتج لنا "منحنى تكراريًا معتدلًا" أو منحنى يشبه الجرس، فينتظر أن تكون غالبية الناس في الوسط، ويقل التوزيع كلما اتجهنا صوب الطرفين. كما ينتظر أن تكون حالات التشاؤم المفرط، وحالات الإغراق في التفاؤل قليلة، وعلى طرفي نقيض في مستوى التقدير. فهل تكون هذه الحالات المتطرفة على علاقة بالعصاب (أي بالمرض النفسي)؟

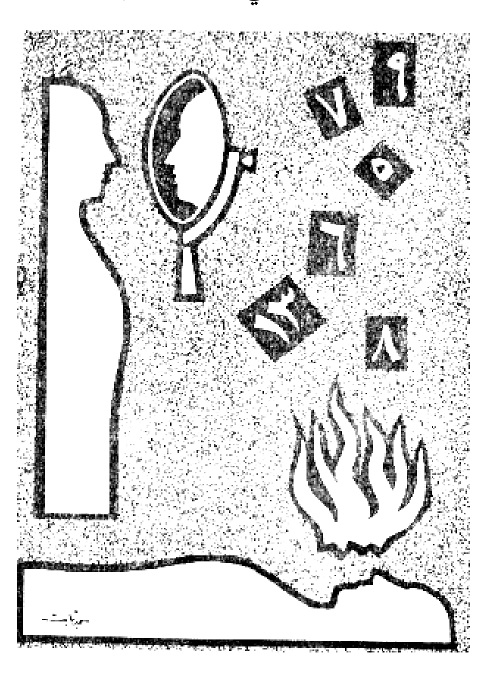
من المعروف أن العصاب الذي يكون المنطوي معرضًا له بصفة خاصة هو العصاب القهري، وأن الهستيريا هي العصاب الأكثر شيوعًا بين من ينتمون إلى النموذج المنبسط. ولذلك نشير إلى احتمال إيجاد علاقة بين: التشاؤم والانطواء والعصاب القهري من ناحية، والتفاؤل والانبساط والهستيريا من ناحية أخرى.

## التطير من الأحلام:

من أهم ما يستوقف نظر معظم الناس في أحلامهم ويثير اهتمامهم بها هو قيمتها في التنبؤ بالمستقبل. وإذا سألوا عن تفسيرها، فإنما يسألون عما يصح لهم أن يتوقعوه وينتظروه، لأنهم يتطلعون إلى التماس المعاني المخبوءة التي تنبئ عنها أحلامهم.

والتطير من الأحلام والاعتقاد في قيمتها التنبئية اعتقاد قديم ظل سائدًا بين الناس عصورًا طويلة. وكانت للقدماء أحلام لها دلالات متعارف عليها، ومنها ما يستبشرون به ويتفاءلون، ومنها ما يتشاءمون منه ويتطيرون. ومن هذه الأحلام "الأحلام النموذجية" وهي الأحلام المشهورة التي يحلم بها كثير من الناس بطريقة متشابهة، وتتكرر رموزها، وتحمل دائمًا نفس المعنى، وتؤول في كل مكان تقريبًا بدلالة واحدة لا تتغير.

وقد تناولت بالتحليل المفصل مجموعة من هذه الأحلام المشهورة ذات الدلالات الشعبية القديمة في كتاب بعنوان:



"الأحلام النموذجية ودلالتها التنبئية"

نشرته دار المعارف في عام ١٩٦٠ ضمن مكتبة الثقافة الشعبية. ويدرس هذا الكتاب مجموعة كبيرة من الأحلام النموذجية وأهمها: حلم العرى – حلم الحفاء – حلم الطيران– حلم الامتحان– حلم النظر في المرآة – الحلم بالحرامي– الحلم بالنار الموقدة– أكل الكعك، وأكل التين في الأحلام – الارتحال والسفر في الأحلام – فقدان الأسنان في الأحلام – قص الشعر في الأحلام – العثرة وكسر الخاتم في الأحلام– الصعود والسقوط في الأحلام – الميلاد والموت في الأحلام– وفاة الأهل في الأحلام – المشي أثناء النوم – رؤى يوسف وفرعون– دلالة الأرقام في الأحلام– دلالة الألوان في الأحلام".

وقد نسب القدماء لهذه الأحلام دلالات تنبئية، منها دلالات ميمونة تبعث على التفاؤل، ومنها دلالات مشئومة تدعو إلى التطير، ومثال ذلك: حلم العرى، ودلالته الافتضاح– حلم الحفاء، ودلالاته العوز والفاقة– حلم النظر في المرآة، ودلالته المرض– الحلم بالنار الموقدة، ودلالته نار جهنم وعذاب الآخرة؛ وأكل الكعك في الحلم، ضيق؛ وأكل التين، ندامة وهم وغم؛ والارتحال أو السفر في الحلم دلالته الموت؛ وفقدان السن في الحلم دلالته وفاة أحد الأقارب؛ وقص الشعر في الحلم دلالته وفقدان القوة؛ والضحك في الحلم بكاء وحزن؛ والبكاء في الحلم، فرح وسرور؛ والصعود في الحلم رفعة؛ والسقوط في الحلم يدل على تغير الأمر وتعذر المراد.. وهكذا. وتعتبر هذه الأحلام المشهورة ودلالتها الشعبية القديمة الواسعة الانتشار جزءًا من التراث الميثولوجي

الذي توارثاه على مر الأجيال، لأن الدلالات القديمة لهذه الأحلام استرشدت بمدلولات الرموز في الأديان والأساطير والطقوس والفولكلور القديم.

وقد وازنت في هذا الكتاب بين التفسيرات الشعبية القديمة لهذه الأحلام ممثلة في تفسير محمد بن سيرين الذي عاش في نهاية القرن الأول الهجري ومات سنة ١٠٨هـ (٧٢٨م)، وتفسيرات المحدثين من أقطاب التحليل النفسي، وقد هالني ما تنطوي عليه تفسيرات ابن سيرين من فراسة وبصيرة نافذة. فالدلالات القديمة التي يقول بها والتي تشير إلى المستقبل غالبًا ما تكون هي ذاتها الدلالات اللاشعورية التي يقول بها رجال التحليل النفسي. وقد أخذت الدلالات التنبئية القديمة للأحلام من كتاب ابن سيرين "منتخب الكلام في تفسير الأحلام" الذي طبع بدار الطباعة الخديوية ببولاق سنة ١٢٨٤هـ.

# الفصل الرابع

# العرافة واستطلاع الغيب

من مظاهر التطير الالتجاء إلى معرفة الطالع واستشارة العرافين، والاعتقاد في إمكان قراءة الفكر والضمير. وتكشف هذه الاعتقادات الشائعة عن رغبة متأصلة في نفوس كثير من الناس لكشف حجب الغيب واستطلاع ما يخبئه لهم القدر في المستقبل.

ويختلف حظ الناس في مدى اقتناعهم بإمكان قراءة الطالع، فيأخذ بعض الناس قول العراف مأخذ الجد، ويستسخف البعض الآخر تنبؤاته. كما يختلف الناس في قبول طرق العرافة المختلفة، فمنهم من يصدق في إمكان معرفة الماضي أو الحاضر، ولكنه يشك في إمكان التنبؤ بالمستقبل. ومنهم من يثق في تنبؤات قارئ الكف أو الفلكي، ولكنه ينكر طريقة الضاربة للرمل والهامسة في الودع. ومنهم من يبدأ يومه باستطلاع بخته في جريدة الصباح، ويواظب على ذلك بإلحاح. ومهما جاءت الطوالع مغايرة للواقع، فهو يتهافت على أي شيء يتفاءل به، عسى أن يصدق.

وفي كل مجتمع من المجتمعات القديمة والحديثة والبدائية والراقية، فئة من الناس يدعون لأنفسهم قدرات خاصة، ويعرفون بأسماء مختلفة منها: العرافون والراءون والدجالون والمجذوبون والوسطاء الروحيون والوسطاء المنومون تنويمًا مغناطيسيًا، والكهان والفقراء والمنجمون والمتصوفة.. ومن

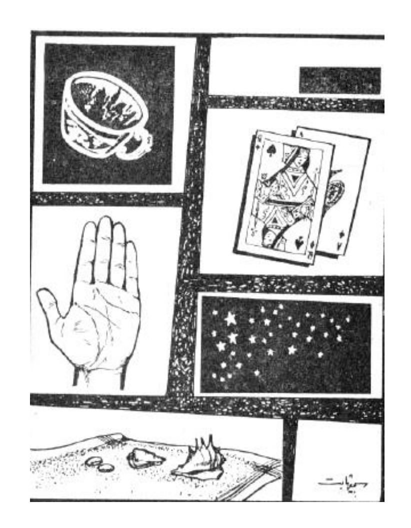
إليهم. ويختلف حظهم من هذه القدرات التنبئية أو الملكات النفسية، فمنهم الأدعياء والمحتالون، ومنهم من بلغت عنده هذه القدرة درجة خارقة للعادة، تبعث على الدهشة والإعجاب. وفيما بين أولئك وهؤلاء تتفاوت كفاية العرافين بحسب ما أوتوا من قدرة أو فراسة.

ويروي لنا التاريخ أمثلة كثيرة لعرافين وكهان، كانت لهم مكانة مرموقة في بلاط الملوك القدماء، شرقيين وغربيين. وكان العرافون طوال العصور القديمة والوسطى موضع ثقة الملوك والحكام، يعتمدون عليهم ويأخذون بمشورتهم قبل الإقدام على أمر هام، مثل الشروع في غزو، أو إبرام صلح. وكان توقيت هذه الأمور رهن بظهور العلامات المبشرة بالنجاح للكاهن أو العراف.

والظاهرات الغيبية أو الخارقة للعادة قديمة معهودة في جميع الأجيال والعصور. والثابت عند المعنيين بتاريخ هذه الظاهرات أنها عرفت في الشرق القديم عند قدماء المصريين والآشوريين والكلدانيين، ثم امتزجت بما عرف منها عند اليونانيين والرومان. وانتقل هذا التراث الهيلينى الذي جمع بين العناصر الشرقية والأفكار اليونانية إلى مفكري الإسلام وأثر في الكثيرين منهم، ولا حاجة بنا إلى تتبع تاريخ هذه الظاهرات، أو ذكر أمثلة لها في عصور التاريخ المختلفة. وحسبنا أن نشير على القارئ بالرجوع إلى الدراسة التاريخية الشيقة التي صدرت ضمن هذه المجموعة[1].

---

([1]) انظر: "التنبؤ بالغيب- قديمًا وحديثًا"، تأليف الأستاذ أحمد الشنتناوي، اقرأ ٢٠١.



وميدان هذه الظاهرات الغيبية ميدان رحب فسيح، ويتعذر أن نلم به في مثل هذا الحيز المحدود، ولذلك لابد لنا من تحديد مجال البحث بحيث يقتصر على علاقة العرافة واستطلاع الغيب بالتطير. وسنعني بصفة خاصة بالنظريات التي قيلت في تفسير هذه الظاهرات الغيبية، ثم نحاول تطبيقها على طرق العرافة الحديثة المنتشرة في مجتمعنا في الوقت الحاضر، التي يتم الاعتقاد فيها عن التطير.

ويجب ألا يتوقع منا القارئ أن نقطع برأي في مدى صحة هذه الظاهرات وثبوتها. كما أننا لا نستطيع أن نكذبها أو ننفي حدوثها بدعوى أنها خرافات. غاية ما يمكننا القول هو أن هذه الظاهرات لم تدرس بعد دراسة كافية، ولم يصل العُلماء بشأنها إلى يقين.

سنستخدم لفظ العراف أو قارئ الطالع لينصرف إلى أي واحد من المشتغلين بالتنبؤ بالغيب، سواء استخدم التنجيم أو التنويم المغناطيسي أو الوساطة الروحية أو تحضير الجان أو الأرواح. وهذه الطرق وأشباهها

بينها تداخل كبير ويتعذر الفصل بينها. وهي تقوم على أساس افتراض وجود قدرة معينة على الكشف والتلقي والإيحاء وما شابهها من الصلات النفسية عن طريق غير طريق الحواس المعروفة. وأساس هذه القدرة استعداد خاص عند بعض الأفراد، يمكن تنميته بالمجاهدة والرياضية. وتنطوي هذه القدرة على ظاهرتين أساسيتين يدور حولها بحث العلماء في الوقت الحاضر، هما التخاطر والاستشفاف.

والتخاطر Telelpathy هو انتقال الأفكار والتأثيرات المختلفة من ذهن إلى آخر، دون الاستعانة بمسالك الحس المعروفة.

أما الاستشفاف Clairvoyance فهو الكشف، ويحتاج إلى جلاء بصري يمكن صاحبه من إدراك أشياء أو حوادث دون أن يراها، ويصفها وهي محجوبة عنه، سواء أكانت قريبة أم بعيدة.

وقد ذهب العلماء في تعليل هذه الظاهرات الغيبية –التي تنطوي على التخاطر والاستشفاف– مذاهب شتى. وفيما يلي نتناول أهم النظريات التي قيلت في تفسير هذه الظاهرات.

### ١- الحاسة السادسة:

صاحب هذه النظرية[١] هو جوزيف سينيل. وهو ينسب القدرات الغيبية أو الصلات النفسية التي تتم عن طريق غير طريق الحواس المعروفة، إلى الجسم الصنوبرى أسفل المخ. ويقرر أن الأجسام المادية يمكن أن تحس من بعيد لأنها تبعث حولها ذبذبات متلاحقة تسري إلى مسافات بعيدة. وقد تخترق الحوائل كما تفعل الأشعة السينية، ويعلل غرائز الأحياء التي تهتدي إلى أمثالها أو إلى الأماكن المحجوبة عنها على المسافات الطويلة بحاسة تتلقى هذه الذبذبات وتتبعها إلى مصادرها. أما الإنسان وسائر الحيوانات الفقارية فهي تعتمد على الجسم الصنوبري في الدماغ للشعور بالأشياء التي لا تنتقل إليها بحاسة النظر أو الشم أو السمع أو الملامسة. ويستبعد الأستاذ سينيل أن يخلق هذا الجسم الصنوبري عطلا بغير عمل في جميع الأحياء الفقارية، لأن ملاحظاته الدقيقة عن موضع هذا الجسم في الدماغ، واختلاف حجمه بين الأحياء قد دلته على تفسير عمله حسب اختلاف موضعه وحجمه. فهو في الأنثى أكبر منه في الذكر، وفي الهمجي أكبر منه في المتحضر، وفي الطفل أكبر منه في الرجل، وفي الحيوان أكبر منه في الإنسان. وهو قريب إلى فتحات الرأس في بعض الأحياء التي تعول على التحسس البعيد ولا تستغنى عنه بالقياس العقلي أو بالوسائل الصناعية كما يفعل

---

[١] انظر كتاب "الحاسة السادسة" تأليف جوزيف سينيل، ترجمة الأستاذين محمد بدران، وأحمد محمد عبد الخالق، مكتبة الآداب ١٩٤٥.

الإنسان. وكلما انصرف الحي عن استخدام هذا الجسم الصنوبري ضمر، واقترن ضموره بضعف الشعور بالذبذبات والرسائل المنتقلة من المسافات القصيرة.

قال الأستاذ سينيل: "أما الكشف كما أعرفه أنا – وكما ينبغي أن يعرف – فهو إدراك الأشعة المغنطيسية أو قل الموجات المغنطيسية المنبعثة من الأجسام المحيطة بنا والتي من شأنها أن تخرق كل جسم يعترضها بدون حاجة إلى الاستعانة بأي عضو من أعضاء الحس المعروفة. والكاشف في رأيي هو كل من يستطيع أن يضبط جانبًا من مخه ويعده لكي يستقبل الإشعاع الصادر عن الحاجز، يعني من شيء ما —بعد استبعاده كل أشعة أخرى، شأنه في ذلك شأن الجهاز اللاسلكي الذي يضبط لكي يستقبل موجة منبعثة من محطة ما —مع استبعاد كل موجة أخرى سواها".

وتتصل ظاهرتا الاستشفاف والتخاطر إحداهما بالأخرى اتصالًا وثيقًا. وكثيرًا ما يظهر أثرهما معًا، ولكنهما في جوهرهما ظاهرتان منفصلتان إحداهما عن الأخرى. والاستشفاف هو نوع من الإبصار، يصل إلى المركز الحسية البصرية بطريق آخر غير طريق العينين، أما التخاطر فهو انتقال الذبذبات الأثيرية الصادرة من عقل إلى آخر، وذلك أن التفكير في شيء معين يولد ذبذبات ذهنية، يستطيع أن يلتقطها من أوتي القدرة على استقبالها، فتنتقل الأفكار. وهكذا ينسب سينيل إلى الجسم الصنوبري القدرة على الاستشفاف والتخاطر. ويعتمد في تفسيره لهاتين

الظاهرتين على التعليل المادي أو الجسدي المحسوس.

والاعتراض الذي يمكن أن يوجه إلى هذه النظرية هو أن صاحبها لم يقم الدليل القاطع على أن الجسم الصنوبري هو الذي يقوم فعلًا بتلك الوظيفة التي يعزوها إليه. كل ما هنالك أن هذا الجزء من أجزاء المخ لا يعرف رجال الطب له وظيفة ثابتة. وهو يفترض أن وظيفته هي تلقي تلك الموجات أو الإشعاعات المغناطيسية. وهذا الفرض لم تثبت صحته.

### ٢- التنبؤ بالغيب عند الصوفية[٢]:

يقسم مفكرو الإسلام أساليب التنبؤ إلى نوعين: طبيعية وصناعية. وتشمل الأساليب الطبيعية حالات التنبؤ إبان الجذب في اليقظة، والرؤيا الصادقة أثناء النوم. أما الأساليب الصناعية فتجئ صناعة واكتسابًا، وتشمل النظر في الأجسام اللامعة، والزجر والفأل، والتنجيم والسحر، وتأويل الخوارق.

ومرد القدرة على إدراك الغيب –في نظر الصوفية– إلى ذهاب الحس وزوال حجابه سواء في اليقظة أم في المنام. وقد يتوافر هذا لبعض المجاذيب والمرضى والمعتوهين من المريدين ومن إليهم ممن يتهيأ لهم انصراف المزاج عن موارد الحس، وتجرد النفس من علائق البدن. فليس يمنع النفس عن تعقل المدارك الغيبية إلا انغماسها في البدن والحواس وشواغلها. وعندما يرفع حجاب الحس المرسل بين القلب واللوح

(٢) انظر كتاب: "التنبؤ بالغيب عند مفكري الإسلام" تأليف الدكتور توفيق الطويل – دار إحياء الكتب العربية، ١٩٤٥.

المحفوظ، تكشف النفس مكنونات الغيب، ويتجلى لها ما هو مكتوب في اللوح المحفوظ.

ويصور ابن سينا هذا الاتجاه الصوفي في تفسير الكشف وتعليل الرؤيا بقوله: "إن الأحداث منقوشة في لوح محفوظ في العالم العلوي. وفي وسع بعض الناس الاتصال به عن طريق مخيلتهم القوية، فيقع لهم هذا أثناء نومهم، فإن أفرطت مخيلتهم في القوة ظفروا بالاتصال أيقاظًا، وأولئك هم الواصلون من الأولياء"، "... واللوح المحفوظ مرآة نقشت عليها المقادير بغير حروف، ولو ظهرت تجاهها مرآة أخرى، لانكشفت فيها صور الأولى، إلا إذا قام بينهما حجاب. وليست المرآة الثانية إلا القلب، والحجاب هو الشهوات والحواس، ويتجلى هذا في اليقظة. أما النوم ففيه يرتفع الحجاب ويزول، وبذلك تظهر في مرآة القلب صور اللوح المحفوظ، وتنكشف آفاق العالم المجهول. فإذا سلمنا بأن النفس تكون عند النوم في أعظم حالاتها، زال العجب من وقوع العلم بالغيب إبانه".

وهذا التصور الصوفي لكيفية العلم بالغيب في الحلم، على عكس نظرية التحليل النفسي للأحلام التي ترى أن الأحلام لا تهبط من عل، وإنما دوافعها لا شعورية، لا تسقط على النفس من الخارج، وإنما تنبعث من الداخل، لا تشير إلى المستقبل، وإنما جذورها في الماضي.

### ٣- رأي التحليل النفسي:

مرت على فرويد، خلال ممارسته الطويلة للتحيل النفسي، أمثلة كثيرة للتخاطر أو انتقال الأفكار، جعلته يقتنع بإمكان حدوث هذه الظاهرة. وقد أفرد فصلًا ممتعًا عن "الأحلام والظواهر الغيبية" في كتاب: "محاضرات تمهيدية جديدة في التحليل النفسي"، الذي ترجم إلى اللغة العربية ونشر ضمن مجموعة الألف كتاب. وحاول فرويد – في هذا الفصل – أن يربط بين التخاطر وطريقته في تفسير الأحلام والتحليل النفسي، فقال بأن دوافع الأحلام هي الرغبات أو المخاوف اللاشعورية، وكذلك يقرأ العراف أو قارئ الطالع الرغبات أو المخاوف اللاشعورية لمن يستشيرونه. وبذلك يحق للمحلل النفسي أن يحلل النبوءات التي يذكرها العراف بنفس الطريقة التي يحلل بها الأحلام، وروى فرويد أمثلة كيرة لحالات انتقال الأفكار أو التخاطر، نذكر منها بإيجاز المثالين التاليين:

**المثال الأول**: لسيدة في مقتبل العمر، متزوجة ولم تنجب أطفالًا. خلعت دبلة الزواج قبل أن تقصد إلى عراف شهير ليقرأ لها الطالع عن طريق بصمات الكف في الرماد. أخبرها العراف بأشياء كثيرة. وكان من أهم ما قاله لها، إنها ستتزوج وترزق بطفلين. ولم تصدق نبوءة العراف، بسبب عقم زوجها. ولكن العراف استطاع أن يقرأ الرغبة اللاشعورية التي كانت تنطوي على جوانحها، وهي الرغبة في الأطفال. وكانت هذه الرغبة هي الشغل الشاغل لها وقت استشارة العراف. وكانت تنغص عليها

حياتها، وتعالج بالتحليل النفسي من جرائها.

**المثال الثاني**: لطالب طب في السنة النهائية، يعالجه فرويد من اضطرابات نفسية منشؤها تعلقه العصابي بأخته، وكراهيته اللاشعورية لزوجها. سمع هذا الطالب عن عرافة شهيرة تشتغل بالتنجيم. وكانت وطريقتها بسيطة، فلم تكن تطلب سوى معرفة تاريخ ميلاد الشخص، ثم تستشير بعض كتب التنجيم، وتقوم بعمليات حسابية معقدة، وتخبر بعد ذلك بطالعه. عول الطالب على أن يستشيرها، لا عن نفسه بل عن زوج أخته.

فأعطاها تاريخ ميلاد زوج الأخت. وبعد أن حسبت النجم، تنبأت له قائلة: "إن هذا الشخص سيموت مسمومًا من أكلة محار في الصيف القادم". ومضى الصيف، ولم تتحقق نبوءتها. روى هذا الطالب لفرويد أثناء جلسات التحليل، أن زوج أخته مغرم فعلًا بتناول المحار، وأنه كاد يموت مسمومًا بسبب طبقه المفضل، منذ عامين، أي قبل استشارة العرافة. وواضح أن العرافة لم تخبر عن المستقبل، ولا عن الماضي، وإنما هي قرأت الرغبة اللاشعورية للطالب الذي يستشيرها. ولتوضيح ذلك نقول: نفرض أن هذا الطالب حلم بموت زوج أخته. إن تفسير هذا الحلم البسيط هو أنه يضمر كراهية لا شعورية نحو زوج أخته، عبرت عن نفسها في الحلم بموته. وقد ينم هذا الحلم عن الرغبة في مغنم ثانوي يعود على الحالم من وفاة زوج أخته. وكما أن هذه الرغبة يمكن أن تفصح عن نفسها في الحلم، فكذلك يمكن للعرافة أن تقرأها وتخبر بها.

وهذا يؤيد قول فرويد إن ما يحاول العراف أو قارئ الطالع قراءته هو الرغبات أو المخاوف اللاشعورية لمن يستشيرونه.

وإذا كان فرويد يدعونا إلى أن ننظر بعين الاعتبار إلى احتمال حدوث التخاطر أو انتقال الأفكار، فقد سبقه كثيرون من علماء النفس أيدوا صحة ثبوت هذه الظاهرة. ومن هؤلاء العالم النفسي الكبير وليم مكدوجل الذي قال: "إنني أعتقد أن التخاطر أو انتقال الأفكار وشيك جدًا أن يتقرر بصفة نهائية في عداد الحقائق المعترف بها علميًا". وكذلك يقول الدكتور أليكسيس كاريل في كتابه: "الإنسان، ذلك المجهول": إن وجود الاستشفاف والتخاطر أمر مفزرغ منه.

وهكذا تلقى كل نظرية من هذه النظريات الثلاث على ظاهرات الإدراك الغيبي –كما يبدو في التخاطر والاستشفاف– أضواء من زوايا مختلفة. ومع أن هذه النظريات بينها تفاوت كبير، إلا أنها مفعمة بالمعنى: فنظرية الحاسة السادسة التي تنادي بأن التخاطر والاستشفاف من وظائف الجسم الصنوبري، تعتمد على التفسير المادي الطبيعي المحسوس. وعلى النقيض منها تمامًا التفسير الصوفي المجرد الذي يذهب إلى ما وراء الطبيعة، ويحلق بين الأفلاك في آفاق العالم العلوي واللوح المحفوظ أما التفسير النفسي، فيرد الإدراك الغيبي في مختلف صوره إلى اللاشعور، ويرى أنه ينبع من باطن النفس، ولا يفد إليها من خارج.

وإذا انتقلنا من النظرية إلى التطبيق، فهل تساعدنا هذه الشروح والتفسيرات على فهم طرق العرافة المعاصرة التي لا تزال شائعة في المجتمعات الحديثة، والتي يعتقد فيها المتطيرون؟

يستعين العرافون في الوقت الحاضر بوسائل معينة، مثل: الفنجان – الكف – ورق الكوتشينة – حساب النجم – الرمل والودع – المندل– إلى غير ذلك من الطرق المعروفة. ففي حالة قراءة الفنجان، تتشكل بقايا البن في الفنجان، ويمكن لمن يتأمل فيها أن يتعرف على رموز وعلامات، فتظهر سكة السفر، والنصرة، وشموع الفرح، وما إلى ذلك. وخطوط الكف، كل خط له معنى: خط للعمر، وخط للصحة، وخط للمال... وهكذا. هذه الخطوط تولد مع الشخص وتلازمه، وهي غير قابلة للتغيير، وهي أشبه بالبصمات، ولذلك يندر أن يتشابه كفان. وورق الكوتشينة، كل ورقة لها مغزى ودلالة معينة متعارف عليها، ولا يختلف فيها اثنان؛ أما المندل فهو طبق به زيت، يطيل العراف أو صبيه النظر فيه، ويخبر بما يتراءى له.

وإذا كان العرافون يسترشدون بهذه المعينات في معرفة الطالع، فإن طرق العرافة –في ظاهرها– طرق "موضوعية" تتوقف على ما يراه العراف أمامه ويقرؤه أو يفسر رموزه.

ويقابل هذه الوسائل "الموضوعية" ناحية ذاتية تتوقف على قدرة معينة، نسميها موهبة أو فراسة أو بصيرة أو ملكة نفسية أو حاسة سادسة.. وأحيانًا لا يدري العراف نفسه كنهها وغالبًا ما تقوم هذه القدرة

على استعداد طبيعي خاص، أو يكتسبها العراف عقب التعرض لصدمة أو لخبرات مؤلمة أو لمرض طويل. ويمكن تنمية هذه القدرة بالرياضة الروحية والزهد والصوم والمجاهدة.

ولا تتم الرؤية في جميع الحالات، ولا مع جميع الأشخاص، ولا في كل الأوقات. فلا يقرأ العراف الأفكار أو يكشف الطوالع إلا وهو في أحسن الحالات. وفي أوقات أخرى يغلق عليه، ويخيم الضباب، ويستعصى عليه الإدراك، وتتعذر الرؤية.

قد نفترض وجود نوع من الاتصال بين العراف ومن يستشيره، اتصال روحي أو نفسي أو غيبي أو لا شعوري، تنتقل بواسطته الأفكار أو الصور من عقل إلى عقل، كما يسري التيار أو الموجات أو الذبذبات، دون الاستعانة بوسائل الحس المعروفة. وهو ما يعرف بالتخاطر (أو انتقال الأفكار) والاستشفاف (أو الكشف).

ويشترط لحدوث هذا الاتصال، أن يكون العراف في حالة سلبية، يمتنع فيها عن التفكير، ويزيل حجاب الحس، ويستغرق فيما يشبه الاستبطان. هذه الحالة السلبية أو حالة التركيز والتجمع، تساعده على الخروج من مستوى الشعور إلى مستوى ما تحت الشعور، فيحدث التخاطر أو الاستشفاف.

والعراف الأصيل لا يحتاج في رفع حجاب الحس إلى عناء كبير. ومن العرافين من يكتفي بأن يشغل الحس بالبخور ثم يهيئه بالعزائم، ويخبر بعد ذلك بما يدرك. ومنهم من يحصر جميع مداركه الحسية

ويركزها في نوع واحد منها، فيطيل التحديق في كرة كبيرة مصقولة من البلور، وهو ما يعرف بالتحديق البلورى، يستعين بها على بلوغ هذه الحالة السلبية. ويقال إن النظر في بقايا القهوة في الفنجان أو النظر في ورق الكوتشينة أو في الكف أو إلى النجوم أو إلى المندل، يساعد العراف على الوصول إلى هذه الحالة السلبية. وهو يديم النظر في هذه الأشياء حتى تغيب عن البصر، ويبدو بينه وبينها غشاوة، وتتشكل عليها صورة تتراءى له مجسمة، تحكى له بالمثال والإثارية ما ينبغي إدراكه. وهو يدرك هذه الصورة والأشكال إدراكًا نفسيًا لا يتصل بالبصر. ويشبه هذا ما يحدث في حالة التنويم المغنطيسي، إذ أن التحديق في شيء لامع صغير الحجم وتركيز الفكر فيه يساعد على وصول الوسيط إلى حالة الغيبوبة. ويشبه هذا ما يحدث كذلك في الأحلام. فالحلم وسيلته في التعبير هي الصور. ونرى صور الحلم وحوادثه –بوضوح تام أحيانًا– بنوع من الإبصار، مع أن أداة البصر وهي العين تكون مغمضة أثناء النوم.

والسؤال الهام الذي يلح علينا ولا نعرف له جوابًا هو: من أين يستمد العراف الأفكار التي يقرؤها؟ المفروض أن مصدرها هو الشخص الذي يستشيره وما يجول بخاطره من مشكلات ومشاغل. فهل يقرأ العراف ما يراه مسطرًا أمامه في ورق الكوتشينة أو في خطوط الكف، أو في العلامات والأشكال التي يتشكل بها البن في الفنجان أو بحساب النجم، بطريقة "موضوعية" أم أنها موهبة ذاتية، فيقرأ الأفكار التي تنتقل إليه بطريقة مباشرة من الشخص الذي يستشيره، وفي هذه الحالة تكون

الوسائل المعينة كالفنجان والكف والكوتشينة وسائل تساعده على التركيز والتجمع ورفع حجاب الحس، وتعينه على الوصول إلى مستوى ما تحت الشعور الذي يتم فيه انتقال الأفكار واستشفاف الحوادث؟ ويقول آخر: هل مهمة العراف أن يقرأ ما هو مسطر أمامه ويؤول الرموز والعلامات التي يراها، ويعطيها المعاني والدلالات المتعارف عليها، أم أنه يقرأ الأفكار التي تنتقل إليه بطريق مباشر من الشخص الذي يستشيره دون وساطة هذه الوسائل المعينة، أم أنه يؤلف هذه الأفكار تأليفًا؟

وإذا كان مصدر الأفكار هو هذه الوسائل المعينة التي تتراءى للعراف فيها أشكال وعلامات معينة تختلف من شخص إلى آخر، فكيف يمكن تطويع هذه العلامات والرموز لتعبر عن أفكار ورغبات صاحبها؟ وكيف تنتقل هذه الأفكار والرغبات إلى هذه الوسائل الصماء؟ وهل تستطيع هذه الجمادات أن تتلقى تأثيرات من أفكار شخص ما وتنطبع فيها؟ وكيف تنتقل هذه التأثيرات والانطباعات بعد ذلك إلى عقل شخص آخر هو العراف؟

مهما يكن من شيء، فكثيرًا ما تختلط طرق العرافة بالتدجيل والشعوذة. وإذا كانت هناك نواة من الحقيقة، فقد نسجت حولها ضروب من الأباطيل والخداع والشعوذة، جعلت من المتعذر الوصول إلى لب الحقيقة. وحتى إذا سلمنا جدلا بأن بعض العرافين لهم قدرة معينة على قراءة الأفكار، فليس معنى ذلك أنهم قادرون على شفاء الأمراض، أو علاج العقم، أو رد المطلقة إلى زوجها، أو غير ذلك من الإدعاءات التي

قد تأتي بنتيجة مع الأشخاص القابلين للتأثر بالإيحاء.

ومهما سمعنا من القصص العجيبة عن القدرة الخارقة لبعض قارئي الطالع، وكيف يخبرون عن الماضي أو الحاضر أو المستقبل، وكيف تصدق تنبؤاتهم، وجب ألا ننسى أن عامل الصدفة دائمًا موجود، وأن ما يقوله العراف غالبًا ما يتناول عموميات دون تحديد، وهذه العموميات تقبل التأويل، فمنها ما يبدو كأنه تحقق، ولكن أغلبها يخيب.

و"كذب المنجمون ولو صدقوا".

## الفصل الخامس

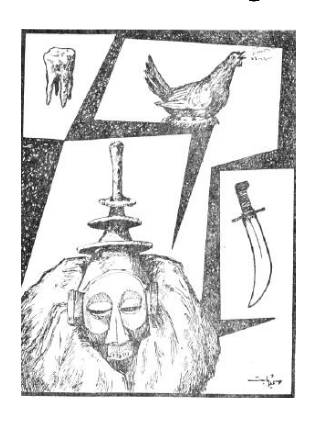
## التطير عند الجماعات البدائية

التطير ذائع الانتشار بين مختلف الشعوب، ويلعب دورًا كبيرًا في حياة الجماعات البدائية المعاصرة. فعند هذه الجماعات فؤول ميمونة ونذر مشئومة؛ كأن يسمعوا هذا الطائر يصيح من جهة اليسار أو من جهة اليمين، أو يروا ذاك الحيوان يعبر الطريق في أثناء المسير. وهم يتعرفون على الفأل في طير الطائر وصياح الحيوان والاتجاه الذي يأتي منه أو يذهب إليه وهلم جرًا. ويدرك البدائي الدلالة السعيدة أو المنحوسة لهذا الفأل أو ذاك، ولا يبدأ في عمل هام مثل إقامة كوخ أو بناء قارب أو الخروج في رحلة صيد، قبل أن يرى الفؤول المبشرة بالنجاح. ويعدل عن غرضه إذا لم تظهر هذه الفؤول أو ظهرت فؤول سيئة. فإذا لمح فألا ميمونًا تحمس للعمل وأقبل عليه، وإذا لمح فألا مشئومًا تخلى عنه وزهد فيه.

وتحقق علامات الفأل التي تظهرها الطيور والحيوانات للبدائيين — في اعتقادهم — غرضين: (١) فهي تعلن عن حوادث مستقبلة، وتدل على نجاحهم أو على إخفاقهم فيما هم بصدد القيام به. وقد تحر من أن خطرًا لا يخطر بالبال سيقع عاجلًا أو آجلًا. (٢) وتعتبر في الوقت نفسه سببًا غيبيًا لهذه الحوادث. فليس العلامات التي تظهرها الطيور

والحيوانات مجرد إشارات ونذر أو إعلان لما سيقع فحسب، وإنما هي أسباب له كذلك. فهي تنبئ عن الحوادث ولها القدرة على إحداثها ولذا فهي علامات أكيدية لما سيقع. فهم يعتقدون أنها تجلب لهم النفع وتدفع عنهم الضرر.

ومن علامات الفأل الردئ التي تزعج البدائيين إزعاجًا شديدًا ويتوجسون منها الشر، الكائنات الممسوخة، والظواهر التي تشذ عن المعتاد. فمن المعتقدات الشائعة عند كثير من الشعوب، التطير من الدجاجة التي تصيح صياح الديك، ولذلك فهي تطارد أو تذبح. ومن أقوال العرب: "إذا صاحت الدجاجة صياح الديك فلتذبح" قالها الفرزدق في امرأة قالت الشعر! وفي وسط أفريقيا (في أوغندة) كان الأطفال الذين تنبت أسنانهم العليا قبل السفلى يقتلون، لاعتقاد الأهالي أنهم إذا لم يفعلوا ذلك انهالت الكوارث على القرية بسبب هؤلاء الأطفال. وإذا حدث في أثناء الوضع أن خرج الطفل برجليه أولًا، اعتبر –عند البانتو سكان أفريقية الشرقية– جالبًا للنحس وخطرًا على الأسرة وعلى القرية بأسرها.



ويتصل بموضوع التطير اصطلاح عند علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية الذين يدرسون حضارات الجماعات البدائية هو التابو Taboo، وهو لفظة في لغة سكان جزر بولينيزيا، ولكنها تعبر عن ظاهرة عامة توجد لدى كثير من الجماعات البدائية، ومعناها الأمور المحرمة.

وقد تكون الأمور المحرمة دائمة أو مؤقتة. فالكهنة والملوك والرؤساء والموتى محرمون بصفة دائمة، وكذلك أسماؤهم وكل ما يتعلق بهم. أما الأشخاص المحرمون في فترة معينة فهم النساء في حالة الحيض وفي حالة الإجهاض وفي حالة الوضع، والرجال قبل الخروج إلى الصيد أو الحرب.

ويعنينا في دراسة التطير التفرقة بصفة خاصة بين نوعين رئيسيين من الأمور المحرمة هما:

(أ) **الأشياء المحرمة**: ومن أمثلتها، الأسلحة القاطعة –الدم– قصاصات الشعر– الأسنان المخلوعة– بقايا الأظافر– بقايا الطعام.

(ب) **الأعمال المحرمة**: ومن أمثلتها، الاتصال بالأجانب والغرباء– تحريمات خاصة بتناول الأطعمة والمشروبات– الحجاب وإخفاء الوجه في مواقف معينة –الامتناع عن مغادرة المنزل في مناسبات خاصة– الامتناع عن ترك بقايا الطعام وضرورة التخلص منها– تحريمات خاصة بحيوان الطوطم الذي تقدسه القبيلة، وتحرم على جميع أفرادها أن يذبحوه أو يأكلوه أو يمسوه بسوء.

وأول ما يستوقف النظر في فكر التابو هو التحريم والنهي والامتناع عن إتيان أعمال معينة: لا تفعل هذا الأمر، لا تأكل هذا الطعام، لا تمس هذا الشيء. وهي تحريمات قديمة توارثتها هذه الجماعات على مر الأجيال دون أن تعرف لها سببًا. ودون أن يكون لها أي أساس من التفكير المنطقي. وهم لا يناقشون سببها، ولكنهم يعتقدون أنهم إذا لم يلتزموا باجتناب هذه المحرمات، أو خالفوا تلك النواهي، حل بهم أشد أنواع العقاب، وتعرضوا للكوارث وسوء المصير، ومعظم العقوبات التي تنجي عن انتهاك هذه الأموال المحرمة من نوع غيبي. وتفضى كل خطيئة بطريقة آلية إلى العقاب أو المرض أو الموت. وتبدو الأمور المحرمة وكأنها مشحونة بطاقة غيبية مدمرة تصعق كل من يخالفها أو يستخف بها.

ومن دأب هذه الجماعات تأويل العوارض والكوارث تأويلًا غيبيًا. فإذا حلت كارثة بفرد أو أسرة أو قرية أو نزلت بهم سلسلة من الخطوب وضروب الإخفاق. لم يفكروا مطلقًا في إرجاعها للمصادفة، بل لابد أن يكون مردها إلى إتيان أمر محرم. إن خرق التابو أو انتهاكه يعد سببًا عامًا لكل حدث غير مرغوب فيه: كسوء الجو والمرض والإخفاق في الحرب وعدم النجاح في الصيد. ولا يكاد الأهالي يشهدون وقوع مخالفة لإحدى المحرمات حتى يتوقعوا حلول كارثة أو مصيبة. ومن ناحية أخرى، إذا ألمت بهم نازلة، كعاصفة هوجاء، أو جفاف طويل، أو موت مفاجئ، أو مرض خطير، أو فشل في الصيد، فلابد أن يفترضوا وقوع مخالفة وانتهاك عادة محرمة. فكل مخالفة تقابلها كارثة محققة، كما أن

كل كارثة أو إخفاق ترجع إلى انتهاك إحدى المحرمات.

وليس من المهم أن تكون المخالفة إرادية أو غير إرادية، شعورية أو غير شعورية، لأن المهم هو كونها وقعت بالفعل. وما دامت قد وقعت فلابد من ظهور نتائجها، بل إن ظهور هذه النتائج هو الذي يلفت النظر إلى وقوع المخالفة. فكل حادثة وكل كارثة دليل على إحدى المخالفات. وأي مخالفة إنما تنشأ عنها نتائج مستقلة عن نوايا الفاعل: فإذا أجهضت إحدى الحبالى مثلًا، أدى إجهاضها إلى انقطاع المطر وهبوب العواصف واختفاء حيوانات الصيد بصورة حتمية، لا بسبب أنها أرادت أن تتخلص من جنينها أو لم ترد، بل لأن الإجهاض قد وقع بالفعل. أما أن يكون هذا الفعل مقصودًا أو غير مقصود فلا أهمية له. إن الذعر والفزع والخوف الشديد من العقاب يحول بين البدائي وخرق التابو أو الاستخفاف به عن عمد. وإذا انتهكه من غير قصد فقد يمرض أو يموت من هول ما اقترف ومن فرط الرعب والفزع الذي يتسلط عليه، ما لم يبادر إلى درء الخطر والتكفير عن المخالفة بطقوس التطهير.

ويجب على من يخترق التابو أن يعترف أولًا بخطئه، حتى يزيح عبئًا ثقيلًا عن كاهله، وحتى تحترس الجماعة من النحس أو سوء الطالع الذي سيصادفها. فمثلا، يعتقد الإسكيمو أن كل من لمس جثة أو دماء سائلة يصبح تابو. وإذا اشترك في الصيد مع جماعة، فإن الصيد يجفل منهم.

ويعتقد الرجل البدائي أنه يمكنه التكفير عن سيئاته وعن وقوعه في المحظور وانتهاكه التابو بطقوس التطهير المعقدة. وقد تكون هذه الطقوس بتكرار بعض الشعائر أو بالعزلة والاغتسال. ومن أمثلة تلك الطقوس ما يقوم به المحاربون في غينيا الجديدة بعد عودتهم ظافرين من ميدان القتال، فهم يعزلون لفترة من الزمن، ويحرم عليهم الاتصال بزوجاتهم وأصدقائهم، ويمتنعون عن أكل اللحوم، ويقتصر طعامهم على الخضر والفاكهة، ولا يلمسون طعامهم بأيديهم وإنما يطعمهم غيرهم. وهذه الطقوس يراد بها التطهير والتكفير عما اقترفوه في الحرب.

ويعتقد البدائي أن من لمس التابو صار هو ذاته تابو، بمعنى أنه يعتقد أن التابو ينتشر كالعدوى وينتقل من شيء إلى آخر. مثال ذلك أن قبائل الماورى –سكان نيوريلندة الأصليين– تعتبر كل ما يتعلق بشيخ القبيلة تابو يحرم الاقتراب منه أو لمسه. وعلى ذلك فلو فرض أن شيخ القبيلة نفخ في نار عليها قدر فيه لحم فإن اللحم يصير تابو، لأن التابو انتقل من أنفاس الزعيم إلى النار، ومن النار إلى القدر الذي يلامس النار، ومن القدر إلى اللحم الذي يلامس القدر، وبذلك يصبح اللحم محرمًا وكل من أكله تعرض لخطر المرض أو الموت. ويروي أن أحد زعماء الماورى أضاع ذات مرة قداحته فوجدها بعض الأفراد وأشعلوا منها غلاييهم، ولما عرفوا صاحبها انتابهم فزع عظيم، لأن الشيخ يعتبر تابو وقداحته بذلك تابو، وكذلك اللهب المنبعث عنها. وعلى ذلك فإن الدخان الذي كانوا يدخنونه والذي أشعلوه بلهب القداحة كان هو أيضًا تابو. وانتهى أمرهم بأن ماتوا من الفزع.

ويجب ألا نخلط بين الأمور المحرمة عند البدائيين، والنواهي الحلقية عند المتحضرين. فمثل هذه النواهي تقوم على أساس من العقل والمنطق، أما الأمور المحرمة فلا يعرف لها سبب، وليس لها أساس من التفكير المنطقي. والنواهي الخلقية عندنا لها غالبًا سند في الدين والقانون، أما الأمور المحرمة فالعقاب يحل بمن يخرقها أو يستخف بها بطريقة غيبية تصعقه وكأنما مسته الكهرباء.

وانتهاك الأمور المحرمة لا يهم الفرد وحده، بل قد يكون سيئ المغبة أيضًا بالنسبة إلى المجتمع. ومثال ذلك دم الحيض، فهو تابو لأنه نجس. ولذلك يحرم كثير من الجماعات البدائية كالأستراليين القدماء والزنوج في أواسط إفريقيا على المرأة الحائض لمس الأشياء التي تخص الرجال، ويقدم لها الطعام في آنية خاصة أو في أوراق شجر الموز الذي يسهل التخلص منه بعد ذلك. وقد يصل الأمر عند الهنود الحمر إلى حد عزل الفتاة أو المرأة الحائض حتى تنتهي فترة الحيض.

ويحرص رؤساء القبائل وشيوخها على إلزام الناس احترام الأمور المحرمة، لأن في مراعاتها نجاة الجماعة وسلامتها. ولذلك استخدم هؤلاء الرؤساء التابو في تأكيد سلطتهم. وأصبح التابو يقوم بالنسبة للسلطة الضابطة في القبيلة بنفس الدور الذي يقوم به الضمير (أو الذات العليا) في نفس الفرد. فالضمير هو الوازع الخلقي الذي ينهي ويحرم، ويقوم بنفس الدور الذي يقوم به التابو في المجتمعات البدائية.

ويرتبط كثير من الأمور المحرمة عند البدائيين بطقوس تنصيب المراهقين، ويتم في أثناء هذه الطقوس غرس هذه الأمور المحرمة

وتأكيدها في نفوس البالغين. وتوجد طقوس تنصيب المراهقين عند سكان أستراليا الأصليين، وعند الزنوج في جنوب إفريقية من قبائل البانتو، كما توجد كذلك عند الهنود الحمر. وتتلخص هذه الطقوس في عزل الفتيان الذين وصلوا سن البلوغ في معسكر خاص بهم حيث يتمرسون على بعض الأعمال والحرف، ويتعرضون لضروب من القسوة والحرمان، فيحرم عليهم تناول أنواع معينة من الأطعمة كاللحوم والأسماك. ويحظر عليهم حمل السلاح أو استخدامه. ويجتازون اختبارات عديدة لتعويدهم قوة الاحتمال. ويلقنون تقاليد القبيلة، وعاداتها المحرمات، والنواهي الخلقية، والأمور المقدسة فيها، كل ذلك وهم بمعزل عن بقية القبيلة، ويحظر على النساء والأطفال الاقتراب منهم. وقبل أن يسمح لهم بالتمتع بحقوق الرجال والاندماج مرة ثانية في حياة القبيلة، يقام حفل لتنصيبهم. وفي هذا الحفل يمثلون قتل المراهقين وبعثهم من جديد بأسماء جديدة. وتجرى لكل مراهق عملية الختان، ثم تخلع لكل منهم سن من المقاطع الأمامية في الفك العلوي. وهناك اختلافات في تفاصيل هذه الطقوس بين الجماعات المختلفة. ولكنها تشترك بوجه عام في تلك المظاهر التي لخصناها.

ويفسر علماء التحليل النفسي هذه الطقوس القاسية التي يمر بها الفتيان أثناء تنصيبهم، بأنها تفصح عن الصراع بين مشاعر متباينة، وتدل على أن شعور الآباء نحو الأبناء ينطوي على تناقض وجداني يجمع بين العطف والحب في الشعور الظاهر والكراهية والعداء في اللاشعور.

# الفصل السادس
## علاقة السحر بالتطير

تعتبر دراسة سير جيمس جورج فريزر للسحر في كتابه: "الغصن الذهبي– The Golden Bough" من أوفى الدراسات وأكثرها شمولا، ذلك لأنها دراسة مقارنة رحبة الأفق عالمية المجال. وقد جمع فريزر بين دفتي هذا الكتاب مئات الأمثلة للسحر من مختلف شعوب العالم البدائية والراقية، ومن مختلف العصور قديمها وحديثها، ثم قام بتصنيف هذه الأمثلة وتحليلها ومقارنتها، واستخلص منها في النهاية النموذجين الرئيسيين للطقوس السحرية وهما: (١) السحر بالاقتران. (٢) السحر بالتقليد أو بالمحاكاة.

والنوع الأول وهو السحر بالاقتران ينطوي على تطبيق خاطئ لمبدأ ترابط الأفكار بالاقتران أو بالاتصال، وفيه يرمز الجزء للكل. وفي هذا النوع من السحر يزعم الساحر أنه يستطيع إيذاء أي شخص بأن يحصل على أي شيء يرمز له، مثل قصاصة من ملابسه أو خصلة من شعره أو بقايا أظافره أو سنه المخلوعة. وما يحدث لهذا الجزء يحل كذلك بالكل. ويعتقد الرجل البدائي أن الصلة بينه وبين أي جزء من جسمه تستمر حتى بعد أن ينفصل هذا الجزء منه، بحيث إذا أصاب هذا الجزء (الشعر أو الدم أو السن أو قلامة ظفر) أي مكروه، حل بصاحبه هذا

المكروه عن بعد، ولذلك يحرص البدائيون على ألا تقع هذه الأشياء في يد عدو أو كائد، لاعتقادهم أن من وقعت في حوزته هذه الأشياء، وأراد بصاحبها السوء، استطاع أن ينال منه ويؤثر فيه عن بعد. فكل ما يتعرض له الجزء، يحل أيضًا بالكل أي بصاحبه.

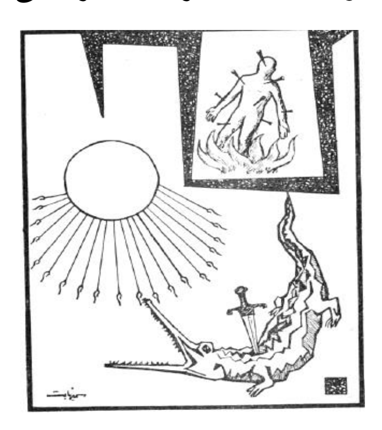
أما النوع الثاني، وهو السحر بالتقليد أو بالمحاكاة، فهو تطبيق خاطئ لمبدأ ترابط الأفكار بالتشابه. وبمقتضاه يعتقد الساحر أن في قدرته الحصول على النتائج المرغوبة بتقليدها أو بتمثيلها. وفي هذا النوع من السحر يستعين الساحر على من يريد إيذاءه بدمية صغيرة ترمز له يصنعها من الشمع أو الطين، فإذا غرس إبرة في أي موضع من هذه الدمية وكرر ذلك مرات عديدة، فإنه يتوقع أن يصاب صاحبها في ذات الموضع من جسمه. ونلاحظ في هذا النوع من السحر أن شكل الطقوس السحرية ينم عن وظيفتها المرجوة منها، وأن لكل غرض طقوسًا خاصة هي تمثيل ومحاكاة للغرض المطلوب.

وتقسيم الطقوس السحرية إلى هذين النوعين هو لسهولة الدراسة. وفي الحياة العملية يوجد النوعان معًا. ومن أمثلة وجود النوعين معًا تلك الطقوس السحرية التي يقوم بها السحرة في الملايو. فإذا أراد الساحر منهم بشخص سوءًا، أخذ قليلًا من شعره أو من بقايا أظافره، وأدخلها في دمية يصنعها من الشمع المأخوذ من خلية نحل مهجورة. وفي كل ليلة يقرب هذه الدمية من النار ويصليها فوقها بعض الوقت دون أن يحرقها ويكرر ذلك مدة سبع ليال متوالية. وفي الليلة السابعة يلقى بها في النار،

ويتوقع عندئذ وفاة صاحبها.

على أن السحر لا يقتصر استخدامه على الإيذاء، بل يستخدم في أغراض أخرى بدعوى المساعدة في الولادة، وفي علاج الأمراض، وفي استنزال المطر، وفي استجلاب الحظ في الصيد وفي الحرب، إلى غير ذلك من الأغراض والإدعاءات؛ وكلها تنطوي على التطبيق الخاطئ لترابط الأفكار بالاقتران، وترابط الأفكار بالتشابه.

ويمكن أن نتعرف في السحر عند قدماء المصريين على هذين النوعين. فقد كان الكهنة المصريون في طيبة يقومون بطقوس سحرية للمعبود رع إله الشمس. وهذه الطقوس يُراد بها مساعدة الشمس على الظهور، وذلك بالتنكيل بعدو الشمس المدعو (إبيي) ويرمز له بالتمساح. وتتلخص هذه الطقوس في عمل دمية للتمساح من الشمع يكتب عليها اسمه بالمداد الأخضر، وتغلف هذه الدمية في ورق البردي ويرسم على هذا الغلاف رسم آخر للتمساح بالمداد الأخضر، ويربط بشعر أسود، ثم يطعنها الكاهن بمدية، ويطرحها أرضًا ويطؤها بقدمه اليسرى، وأخيرًا يلقى بها في النار.



وكانت هذه الطقوس تتكرر مرات عديدة في اليوم الواحد. يتضح من هذا المثال بجلاء المبدآن الأساسيات اللذان يرجع فريزر السحر إلى تطبيقهما الخاطئ، وهما ترابط الأفكار بالاقتران –أي الدمية التمساح ترمز لعدو الشمس، وترابط الأفكار بالتشابه كأنما التنكيل بعدو الشمس وتكرار ذلك، يساعد الشمس على الظهور والتغلب على عدوها.

وإلى هذين النوعين تستطيع أن تنسب شتى ضروب الدجل ومختلف صنوف الشعوذة كما توجد بين جميع الشعوب وفي مختلف العصور. ومن الطريف أن كلا النوعين معروف في مصر. فإلى وقت قريب كان بعض العامة يلجأون إلى الدجالين وبصفة خاصة النساء اللائي يشكون من العقم، والمرضى بأمراض مستعصية. ويدخل الدجال في روعهم أنه معمول لهم عمل سحري أو كتابة وأنه يستطيع أن يستخرجها. ويفسر الدجال طريقة العمل بأن بعض ذوي النيات السيئة استحوذ على أثر (وتنطق بالتاء) وهذا الأثر هو أي شيء من متعلقات الشخص الذي عمل له العمل كمنديل يخصه أو قصاصة من ملابسه، وعمل عليه الكتابة عند أحد السحرة، ثم دفن هذه الكتابة في المقابر أو تحت عتبة الباب أو رشها له طريقه بحيث يمر عليها. ولو أتيح للقارئ أن يفحص إحدى هذه اللفائف التي يستخرجها الدجال (الكتابة، أو العمل السحري) لوجد قصاصة من قماش يزعم الدجال أنها من ملابس الشخص المعمول له العمل، وورقة بالية مدونة فيها رموز غريبة واسم الشخص واسم والدته، وأجزاء من عظام ميت وتراب المدفن، وغالبًا ما يشير الدجال بإلقاء هذه

اللفافة بمحتوياتها في الماء الجاري وبذلك يفك العمل، وتذهب المتاعب إلى غير رجعة.

## السحر والتابو:

رأينا أن التطير من التابو أو الأمور المحرمة ينتشر انتشارًا كبيرًا بين الجماعات البدائية المعاصرة، وأمثلته كثيرة لا تقع تحت حصر. وقد ذكرنا بعض هذه الأمثلة في الفصل السابق. والتابو هو الناحية السلبية للسحر. وينطوي كذلك على التطبيق الخاطئ لترابط الأفكار بالاقتران وترابط الأفكار بالتشابه.

وتوضح الأمثلة التالية العلاقة الوثيقة بين السحر والتابو:

## الأسنان المخلوعة:

من العادات الغريبة لدى بعض الجماعات البدائية تحطيم سن أو اثنتين من المقاطع الأمامية في الفك العلوي في أثناء إجراء طقوس تنصيب المراهقين والاحتفال بختانهم. وقد أشرنا فيما سبق إلى هذه الطقوس. ولهذه الأسنان التي تخلع في طقوس تنصيب المراهقين قيمة سحرية. لأن هذه الجماعات البدائية تعتقد أن العلاقة تستمر بين المراهق وسنه المخلوعة. فالسن جزء يرمز للكل. وسن الشخص رمز للشخص نفسه. وما يتعرض له الجزء يحل كذلك بالكل عن بعد. ومثل السن المخلوعة كمثل الخصلة من الشعر أو قلامة الظفر التي يحرص أفراد هذه القبائل البدائية على ألا تقع في يد عدو أو كائد، لاعتقادهم أن من

وقعت في حوزته هذه الأشياء وأراد بصاحبها السوء، استطاع أن ينال منه ويؤثر فيه عن بعد: فكل ما يتعرض له الجزء يحل أيضًا بالكل أي بصاحبه، بمقتضى السحر بالاقتران، كما سبق القول.

ويعتقد سكان أستراليا الأصليون أنه إذا دفنت السن المخلوعة أسفل شجرة أو ألقيت في النهر، لا يصاب صاحبها بسوء. أما إذا جرى عليها النمل، أصيب صاحبها بمرض في فمه. ولا تزال بقايا هذه المعتقدات سائدة عندنا في الريف حيث جرت العادة بإلقاء أسنان التبديل في عين الشمس والقول "يا شمس يا شموسة خذي سنة الجاموسة وهاتي سنة العروسة".

وتحقق الأسنان المخلوعة للبدائيين وظيفة هامة، ذلك أن شيوخ القبائل يحتفظون بالأسنان المخلوعة في طقوس تنصيب المراهقين. فالسن المخلوعة بمثابة (الأتر) أو الجزء الذي يرمز للكل في طقوس السحر. ويحتفظ شيوخ الجماعة بهذا (الأتر) كرهينة يستطيعون بواسطتها أن يتحكموا في مصير الفتى. لأن من امتلك السن فكأنما امتلك زمام الشخص. واستطاع بها إذا أراد أن يتحكم في مصيره عن بعد. فهذه العادة وهي الاحتفاظ بالأسنان المخلوعة، هي جزء من الطقوس التي تلجأ إليها السلطة الضابطة في القبيلة لضمان طاعة أفرادها وضبط سلوكهم، وللمحافظة على تقاليد القبيلة ونظامها، ولغرس هذه التقاليد، وضمان استمرارها وعدم الحيد عنها أو الاستخفاف بها.

## خصلات الشعر:

إن الاعتقاد في إمكان السحر بواسطة خصلة من شعر الشخص أو بقايا أظافره أو قصاصة من ملابسه أو أي "أثر" له ذائع الانتشار في جميع أنحاء العالم. وللشعر قيمة سحرية عند الجماعات البدائية بصفة خاصة. ذلك أن البدائي يعتقد أن الاتصال (الغيبي) يستمر بينه وبين أي جزء ينفصل عنه، وأن ما يصيب الجزء يحل كذلك بصاحبه حتى بعد أن انفصل الجزء منه. ومن هنا كان لخصلة من شعره، أو قلامة أظافره، أو سنة مخلوعة من أسنانه قيمة سحرية، إذا ما وقعت في يد عدو أو ساحر يستخدمها في إيقاع الأذى به.

ويعتبر الشعر عند بعض الجماعات البدائية من الأمور المحرمة "تابو". والتابو هو الناحية السلبية للسحر. فالسحر عمل إيجابي بمعنى أنه بخصلة من الشعر يمكن عمل العمل السحري. أما التابو فسلبي، هو التطير من قص الشعر خوفًا من استخدامه في السحر. ولذلك يحرص البدائي على ألا تقع قصاصات شعره في يد ساحر أو عدو يكيد له، ولذلك يتوخى الحرص في التخلص من بقايا الشعر، فيلقى بها في الماء الجاري، أو يدفنها في الأرض أو في مكان مأمون. ولا تزال بقايا هذه الاعتقادات في مجتمعنا الشرقي، وتبدو في حرص نساء الجيل القديم على التخلص من بقايا الشعر المتخلف في المشط بعناية بإلقائه في المرحاض.

ومن أسباب التطير من قص الشعر، اعتبار الشعر مكمن القوة، وقصه ينذر بفقدان هذه القوة. وهو اعتقاد قديم ورد في التوراة في قصة شمشون ودليلة، إذ فقد شمشون قوته حين قص شعره. والاعتقاد بأن الشعر مكمن القوة، وأن حلقه يؤدي إلى تبديد هذه القوة، اعتقاد شائع لدى كثير من الشعوب البدائية. فعند زنوج هذه القوة، اعتقاد شائع لدى كثير من الشعوب البدائية. فعند زنوج غرب إفريقية طبقة من السحرة يطلق عليهم "صناع الأمطار" وظيفتهم في كل قبيلة استنزال المطر، وهؤلاء السحرة يمتنعون عن حلق شعر رؤوسهم طوال حياتهم، لظنهم أنهم إذا حلقوا رؤوسهم، فقدوا القدرة على استنزال المطر. وكذلك من كان عليه أن يأخذ الثأر ثم يحلقها، لأن حلقه إياها قبل أن يأخذ بثأره يبدد عزيمته. والأمثلة كثيرة على أن قص الشعر يقترن عند الجماعات البدائية بفقدان القوة. وقد يصل التطير من قص الشعر إلى حد عدم قصه على الإطلاق، كما يروى عن ملوك الفرنجة القدماء. كذلك تروي قصص محاكم التفتيش في العصور الوسطى في أوربا، اضطهاد الساحرات وقص شعورهن حتى يفقدن القدرة على السحر.

وينطوي قص الشعر فيما يلوح للبدائي على خطر غيبي. ولذلك تقوم بعض الجماعات البدائية بطقوس معقدة قبل عملية حلق شعر الرأس أو في أثنائها أو بعدها. والغرض من هذه الطقوس اتقاء الخطر الناشئ من قص الشعر. فعند الماورى –سكان نيوزيلندة الأصليين– تتلى التعاويذ على سكين الصوان الذي يقطع به الشعر. كما أن كل من يقص

شعره يعزل بضعة أيام ويصبح بدوره "تابو". كذلك يعيش الحلاق عندهم في عزلة ويحرم عليه الاختلاط بالناس ولا يسمع له يلمس طعامه بيديه، لذلك يطعمه غيره ويقوم بطقوس معقدة من وقت إلى آخر لتطهير نفسه.

ويحتفظ شيوخ القبيلة في هذه الجماعات بالشعر المحلوق كرهينة عندهم. به يضمنون حسن سير وسلوك الأفراد الذين يصبحون طوع أمر هؤلاء الكبار الذين ملكوا زمامهم فلا تسول لهم نفوسهم الخروج على نظم القبيلة وعاداتها. فوظيفة بقايا الشعر المحلوق عند شيوخ القبيلة كوظيفة الأسنان المخلوعة في طقوس تنصيب المراهقين. فهي رهائن يحتفظون بها ويستطيعون بواسطتها التحكم في مصار الفتيان، لأن خصلة الشعر أو السن بمثابة (الأثر) ومن امتلكها فكأنما امتلك زمام صاحبها إذ يمكنه استخدامها في الأغراض السحرية.

ومجمل القول، تقع أمثلة التابو في نوعين رئيسيين هما:

### ١- الأشياء المحرمة:

وهي الأشياء التي يعتقد البدائيون أنها يمكن أن تستخدم في السحر مثل: الشعر- بقايا الأظافر- الأسنان- الدم- اللعاب- الملابس- الأثر- الاسم- بقايا الطعام.....

وهي ذاتها الأشياء المحرمة أو التابو التي تبعث على التطير. ويعتقد الرجل البدائي أن الصلة بينه وبين أي جزء من جسمه كخصلة من شعره أو دمه أو سنه أو قلامة أظافره أو أي جزء من ملابسه أو أدواته، تستمر

حتى بعد أن ينفصل هذا الجزء منه، بحيث إذا أصاب هذا الجزء مكروه حل ذلك المكروه به عن بعد. وهذا هو التطبيق الخاطئ لمبدأ ترابط الأفكار بالاقتران فالأشياء التي تبعث على التطير، والتي تعتبر تابو، كلها بمثابة "الأثر" الذي يمكن أن يستخدم في السحر بالاقتران. ولذلك يحرص الرجل البدائي حرصًا شديدًا على ألا يعرض هذه الأشياء للخطر، وعلى ألا تقع في يد غريم أو ساحر حتى لا يستخدمها في الإضرار به.

## ٢- الأعمال المحرمة:

التابو هو الناحية السلبية للسحر. هو الامتناع عن إتيان أعمال خوفًا من نتائجها الضارة. وإذا كان الرجل البدائي يعتقد أنه يستطيع أن يحصل على نتائج معينة بمحاكاتها بطقوس السحر بالتقليد، فهو يمتنع كذلك عن عمل أشياء يعتقد أنها تؤدي إلى نتائج ضارة. أي يتجنب الأعمال المحرمة أو التابو، بنفس الطريقة التي يمتنع بها المتطير عن المرور أسفل السلم الحائطي أو فتح المظلة داخل المنزل. وإذا كان الهدف من السحر هو تحقيق الرغبات والحصول على النتائج بتمثيلها ومحاكاتها، فإن هدف التابو –أو السحر السلبي كما يسميه فريزر– هو النهي عن أعمال خوفًا مما قد يترتب عليها من نتائج ضارة أو خطرة. وبذلك ينطوي تجنب الأعمال المحرمة والتطير منها على التطبيق الخاطئ لمبدأ ترابط الأفكار بالتشابه.

## الاستجابة المكتسبة الشرطية:

سبق لنا أن أثبتنا بما لا يدع مجالا للشك طريقة اكتساب التطير على أساس الفعل المنعكس الشرطي، وتجارب بافلوف (انظر الفصل الثاني). ونستطيع أن نفسر السحر كذلك على أساس الاستجابة المكتسبة الشرطية. لقد رأينا أن فريزر استخلص في دراسته المقارنة للسحر النموذجين الرئيسيين للطقوس السحرية وهما: السحر بالاقتران، والسحر بالمحاكاة. وهذا التقسيم هو لسهولة الدراسة. وفي الحياة العملية يوجد النوعان معًا.

ومن الطريف أن هذين النوعين يقابلان ناحيتين متكاملتين في ميكانيزم الشرطية ورمزيتها. ويتوافر فيهما الشرطان اللازمان لتكوين الاستجابة المكتسبة الشرطية. وهذان الشرطان هما: الجزء الذي يرمز للكل، والتكرار للتثبت. ففي النموذج الأول، وهو السحر بالاقتران، يرمز الجزء للكل، أي أن شعر الشخص أو بقايا أظافره أو قصاصة من ملابسه ترمز للشخص كله. وفي النموذج الثاني، وهو السحر بالتقليد، ترمى الطقوس إلى تكرار تمثيل وتقليد الغرض المطلوب. ومثال ذلك وخز الدبابيس في المسخ المصنوع من الشمع أو من الطين، وميكانيزم الشرطية في هذا النوع هو التكرار للتثبيت.

ومما يؤيد صحة تفسير السحر والتطير من التابو على أساس الشرطية، تلك المقابلة التي نتبينها بين نموذجي السحر (السحر بالاقتران والسحر بالتشابه) والتطير من التابو أي الأشياء المحرمة

والأعمال المحرمة، وينطوي السحر والتابو كلاهما على التطبيق الخاطئ لمبدأ ترابط الأفكار. (١) فالسحر بالاقتران، ويقابله التطير من الأشياء والرموز، ينطوي على التطبيق الخاطئ لمبدأ ترابط الأفكار بالاقتران. (٢) والسحر بالمحاكاة، ويقابله التطير من الأعمال، ينطوي على التطبيق الخاطئ لمبدأ ترابط الأفكار بالتشابه. وهذه المقابلة بين السحر والتطير من التابو، وتفسيرهما على أساس الفعل المنعكس الشرطي، على جانب كبير من الأهمية، وذلك لأن الشرطية تستند إلى التجريب العلمي.

ولا تقف المقابلة بين السحر والتطير من التابو عند حد اعتبار التطير ناحية سلبية للسحر، وإمكان تفسير كل من السحر والتطير على أساس الشرطية، بل إنهما يشتركان في خصائص أخرى كثيرة، أهمها:

### السببية الخاطئة:

يقوم السحر على السببية الخاطئة، فنظرًا للجهل بأسباب الظاهرات الطبيعية كالمطر، ينسب سقوطه إلى قدرة الساحر على استنزاله. وفي حالة الجهل بأسباب المرض، ينسب المرض إلى فعل السحرة. ولذلك قيل في تعريف السحر بأنه التماس النتائج من غير أسبابها. وهذا هو الفارق الهام بين السحر والعلم. فالقوانين السببية العلمية ثابتة ومؤكدة، ويمكن إعادة إجراء تجربتها للتأكد من صدقها وثبوتها. فإذا قلنا إن الحديد يتمدد بالحرارة، وإن الملاريا ينقلها نوع خاص من البعوض، فالحرارة هي سبب التمدد، والبعوض هو حامل ميكروب الملاريا وسبب نقل هذا المرض. وليس تمدد الحديد ولا الملاريا نتيجة أسباب أخرى.

أما في السحر فالنتائج قد ترجع للقضاء والقدر، أو للمصادفة. وقد ترجع لأسباب كشف عنها العلم، ومع ذلك تنسب النتائج إلى السحر، أي إلى غير أسبابها، ومثال ذلك: هب أن النور الكهربائي انطفأ فجأة. سبب ذلك معروف، ويرجع غالبًا لوجود عطل أو خلل في الأسلاك أدى إلى انقطاع التيار. ولكن هب أن دجالًا أطلق البخور وتمتم بالتعاويذ، فهل تفيد هذه الطقوس في إعادة النور؟ وعندما يعود النور بعد ذلك فجأة، فهل تكون عودة النور نتيجة لطقوس الدجال أم لأنه قد تم إصلاح ما في الأسلاك من خلل؟ وكذلك يسقط المطر في الجهات الاستوائية والمدارية في معظم أيام السنة. وهو يرجع لعوامل مناخية معروفة، ولكن القدرة على استنزاله تنسب عند الجماعات البدائية التي تسكن هذه الجهات –إلى سبب وهمي خاطئ هو الطقوس السحرية. وكذلك خسوف القمر، وهو ظاهرة كشف العلم بجلاء عن سببها. ولكن العامة تعتقد أن بنات الحور هي التي تخنق القمر، ويبدو وكأنما دق الصفائح هو الذي يكشف عن القمر غمته، ويحيل ظلمته نورًا.

والتطير كذلك لحمته وسداه السببية الخاطئة. ونستطيع أن نفسر التطير من كثير من الأمور المحرمة الشائعة بين العامة في مصر على أساس السببية الخاطئة. فمن المعتقدات السائدة بين العامة اعتقاد قديم مؤداه أن الدخول على المرأة التي قامت من الوضع بلحمة نيئة أو باذنجان أسود أو جريد أخضر أو ذهب بندقي يؤدي إلى ما يعرف بالكبس، فيجف لبن الأم وتسوء صحة الطفل، أو تصاب الأم بالعقم فلا

تحمل بعد ذلك. وهذه الأمور المحرمة التي يظن العامة عندنا أنها تؤدي إلى الكبس، لها نظائر عند كثير من الجماعات المحدودة المدنية في المحرمات والنواهي التي ترتبط. ولد الطفل تعرف باسم الكوفيد، التي سنتكلم عنها في الفصل الأخير من هذا الكتاب. أما بالنسبة لما يعرف عندما بالكبس، فالدافع إلى تحريم الدخول بهذه الأشياء على السيدة التي قامت من الوضع حديثًا هو الحرص على صحة الأم وصحة الطفل باتخاذ هذه الاحتياطات الوهمية. ونظرًا للجهل بالوسائل الطبية الناجعة للمحافظة على صحة الأم وصحة الطفل، نسبت إلى هذه الأشياء القدرة على إحداث الضرر بالطفل الوليد أو بأمه، وعندما ساد الاعتقاد في ضرر هذه الأعمال المحرمة، لم يجسر أخد على تحديها.

ويلوح أن الفترة التي تقترب فيها الحامل من الوضع من الفترات العصبية التي يصحبها الترقب والتوقع. وعندما ترزق الأسرة طفلا يختل النمط الذي تسير عليه حياتها. وليس بمستغرب في هذه الفترة الحرجة التي تضطرب فيها حياة الأسرة التي طرأ عليها شيء من التغير في وتيرة العلاقات بين أفرادها، أن تتخذ الاحتياطات الوهمية والتحريمات التي تبدو في ظاهرها وكأنما ترمي إلى المحافظة على صحة الأم وصحة الطفل، ولكن التحليل النفسي بين أن هذه المغالاة في الحرص والحذر إنما هي رد فعل أو تعويض يخفى عكس ما يظهر، ويعبر عن تناقض وجداني حيال الأم وحيال الطفل ينطوي على المحبة والعطف في الشعور الظاهر، ويخفي العداء والكراهية اللاشعورية –كما سيتضح من دراستنا لطقوس الكوفيد.

# الفصل السابع

# الحالات العصابية من التطير

التطير درجات ودرجات، يبدأ بالحالات الخفيفة المستمدة من المعتقدات السائدة في المجتمع، وينتهي بالحالات العصابية (أي المرضية النفسية). وقد اعتبرنا الحالات المشروطة للتطير من الرموز والمنبهات الداخلية –كما تبدو في الأكال والاختلاج– حالات متوسطة، هي من ناحية أشد في الدرجات من الحالات الخفيفة التي تكتسب بالمحاكاة من البيئة المنزلية –ومعظمها من الرموز الخارجية– وهي من ناحية أخرى أخف وطأة أو أقل في الدرجة والشدة من الحالات العصابية.

والفرق بين العصابي والسليم فرق في الدرجة. إذ أن الحالات العصابية تبدو وكأنما ننظر إليها وهي تحت المجهر فتظهر مكبرة، ولها نظائر بصورة مصغرة لدى الأشخاص العاديين الذين نصادفهم في الحياة اليومية. ومع أن الفرق بين العصابي والسليم فرق في الدرجة، إلا أن هناك نوعين رئيسين من العصاب هما: الهستيريا، والعصاب القهري، وهما على طرفي نقيض، والعلاقة بينها علاقة استقطاب وتناقض. ويتوقف الاتجاه إلى أحد هذين النوعين أو إلى الآخر على التأثير النسبي للدوافع المكبوتة أو القوى الكابتة. ففي حالة الهستيريا يبدو وكأنما تغلبت

الرغبات والدوافع المكبوتة. أما في حالة العصاب القهري، فتظهر المغالاة في الضبط والقمع، وكأنما تغلبت القوى الكابتة في العقل أو الضمير.

وهذان النوعان من العصاب على علاقة بنماذج الشخصية ليونج. فالهستيريا هي العصاب الأكثر شيوعًا لدى المنبسط، على حين أن المرض النفسي الذي يكون المنطوي معرضًا له بصفة خاصة هو العصاب القهري.

**العصاب القهري:**

تدخل حالات المتطرفة من التطير في عداد حالات العصاب القهري أو الوسواس المتسلط. والمصابون بهذا المرض النفسي يحرمون على أنفسهم أشياء كثيرة لا ضرر منها، دون أن يعرفوا لهذا التحريم سببًا. ولهم في ذلك تحريمات غريبة. فمنهم من يحرم على نفسه لمس شيء معين. ومنهم من لا يطيق أشياء أو أدوات مما تستخدم في الحياة العادية ويصر على إبعادها من أمامه، ولا يستريح ويهدأ له بال إلا إذا تم له ما أراد. ومنهم من يجد نفسه مجبرًا على تكرار أعمال معينة دون سبب معقول، مثل غسل اليدين عدة مرات في اليوم، أو عد درجات السلم التي يعرف عددها وقام بعدها في صعوده وهبوطه عليها كل مرة.

ومنهم من يخاف أن يبدأ سيره بالقدم اليسرى أو يتجنب المشي على الخطوط البيضاء في الشارع، إلى غير ذلك من ضروب الوسواس وفنونه التي لا أساس لها من التفكير المنطقي. ويدرك المصاب بهذا

الداء إدراكًا واعيًا غرابة أطواره، وأن مخاوفه غير معقولة ولا مبرر لها، وأن الأعمال التي يحظرها على نفسه أو يعافها ويتهيبها خاصة به دون غيره من سائر الناس. ولكنه لا يملك أن يغير من أمره أو أن يتحرر من مخاوفه. وإذا تصادف ووقع في المحظور، أو لمس الشيء الممنوع، أو خرج عن القيود والتحريمات التي فرضها على نفسه، توقع الشر المستطير، وانتابه القلق الذي لا يطاق. ومثل العصابي الذي يتجنب أعمالًا أو أشياء معينة مخافة أذاها وما ينجم عنها من شر، كمثل المتطير الذي يمتنع عن إشعال ثلاث سجائر بعود واحد من الثقاب، أو يتجنب السير تحت سلم الحائط الخشبي، مع فارق هام هو أن التطير من مثل هذه الأعمال يشترك فيه كثير من الناس، ويكتسب بالتقليد والمحاكاة، ويشتق من العادات السائدة في المجتمع. أما تحريمات المصاب بالعصاب القهري التي يلتزمها ويرقبها بدقة، فهي تحريمات خاصة به، يضعها بنفسه لنفسه، وتختلف عن التطيرات المنتشرة في المجتمع.

ومن أعراض العصاب القهري التشاؤم المفرط وتوجس الشر وتوقع أسوأ الاحتمالات. وهذه هي سمات المنطوي. وغالبية الذين يصابون بالعصاب القهري ينتمون إلى النموذج المنطوي. والمريض بهذا الداء تختل في حسه قيم الأعمال والأشياء والأفكار. وقد رأينا أمثلة من الأعمال التي يحرمها المصاب بهذا العصاب على نفسه أو التي يرى نفسه مجبرًا على القيام بها، كما رأينا أمثلة الأشياء التي يعافها ويتهيبها. بقي عالم الأفكار الذي يهيم فيه المصاب بهذا الداء. إنه عالم ملئ

بالأفكار السوداء التي تطارد صاحبها وتلاحقه. وفي أحلام يقظته قد يجتر أفكارًا تدور حول الدفاع عن نفسه ضد ما يوجه إليه من تهم أو ذنوب لم يقترفها!!

ومع ذلك يشرد ذهنه في محاولة تبرئة نفسه منها بالأدلة والبراهين، الأمر الذي يبين بوضوح أنه كان يتوق في قرار نفسه إلى ارتكاب هذه الذنوب. وظلت هذه الأفكار في مستوى ما قبل الشعور دون أن تخرج إلى حيز التنفيذ وتغلبت القوى الكابتة في العقل، قوى القمع والضبط، فأسفر الصراع عن تيار متصل من الهواجس والوسواس وتأنيب الضمير. فالضمير (أو الذات العليا) هو الذي يقوم بالتحريم والقمع والعقاب، وهو الذي يضع النواهي والمحرمات والتابوات. ولذلك نرى المصاب بهذا العصاب يتوجس الشر، ويستشف الخطر، ويتوقع الكوارث، ويتسلط عليه الخوف من أن تحل بعائلته أو بأحد أفرادها كارثة أو مصيبة. وإذا استفسر عن أحد من معارفه يكون قد غاب عنه مدة طويلة، توقع أن يسمع أنه توفى. وإذا ذكر أي شخص بسوء تسلطت عليه فكرة أنه سيموت قريبًا، فيهبط كاهله بالشعور بالذنب وبأنه مسئول عن وفاته. وهذه المبالغة في الشعور بالذنب على جرم لم يرتكبه فعلًا، الدافع إليها لا شعوري نتيجة لتمنياته الشريرة السابقة للغير بالموت.

ومن أعراض العصاب القهري كذلك، ما يطلق عليه فرويد "القدرة المطلقة للفكر" أي المغالاة في تقدير الفكرة النفسية في الدخل إذا ما قورنت بما يقابلها من حقيقة الواقع في الخارج، بحيث يكون المعول

عليه هو الفكرة، فهي قادرة في حد ذاتها على إحداث التأثير في الخارج تلقائيًا بمجرد ورودها على الخاطر. وإذا ما حاول المعالج أن يكشف عن خبيئة ما في اللاشعور، خشى المريض المتطير أن يفصح عن هذه المخاوف، حتى لا تتحقق فعلًا فيرى مكروهًا في عزيز لديه.

## مرض التابو:

يرجع إلى فرويد الفضل في إثبات العلاقة بين العصاب القهري والتابو، في كتابه "الطوطم والتابو" الذي أورد فيه أمثلة عديدة للتابو بين الجماعات البدائية، نقلًا عن كتاب "الغصن الذهبي" لفريزر، وأمثلة أخرى لتحريمات المصابين بالعصاب القهري. ووازن بين الأمراض في الحالتين، فوجد من الخصائص المشتركة بينهما ما دعاه إلى أن يطلق على العصاب القهري اسم "مرض التابو".

فالمريض بالعصاب القهري يضع لنفسه تحريمات خاصة يلزم نفسه باتباعها. وهذه التحريمات مستقلة عن التطيرات المتعارف عليها في المجتمع، ولذلك تختلف هذه التحريمات من عصابي إلى آخر. ومع أن العصابي يدرك غرابة أطواره، فإنه لا يدري عن دوافع هذه التحريمات شيئًا، ولكنه يجد نفسه مجبرًا على الامتناع عن أشياء أو أعمال معينة، ويحس بقلق شديد إذا لم يلتزم بهذه النواهي والمحرمات، ويتوقع العقاب الذي لا مفر منه في شكل خطر محقق يحل بأحد أفراد عائلته.

وقد رأينا أن التابو ينتقل كالعدوى باللمس. فالشخص أو الشيء الذي يلامس شيئًا محظورًا يصبح بدوره محرمًا. فمثلًا يعتبر رئيس القبيلة

عند الماورى محرمًا، وإذا نفخ في النار، فإن الخطر يمتد إلى القدر ثم إلى اللحم في القدر، فمن يأكله يتعرض لخطر الموت. وخاصية انتقال التابو من شيء إلى آخر نجدها أيضًا في الأفعال العصابية القهرية. ونضرب مثلًا لذلك حالة سيدة من مرضى فرويد كانت لا تطيق رؤية بعض الأدوات المنزلية أو لمسها. وتلح في إبعادها من أمامها. وقد وجد بالتحليل النفسي أن سبب ذلك هو أنها عرفت أن زوجها اشترى هذه الأدوات من محل يقع في شارع معين وليكن اسمه مثلا شارع (شتاج)، وظهر أن هذه السيدة كانت قبل أن تتزوج قد أحبت رجلًا يدعى شتاج، وأنها تقاوم في نفسها الرغبة في العودة إليه. وبذلك أصبح هذا الاسم مستحيلًا أي تابو، ثم انتقلت هذه (الاستحالة) حتى شملت كل شيء يتصل بهذا الاسم من قريب أو بعيد.

وموقف العصابي إزاء التحريمات القهرية التي يفرضها على نفسه، كموقف البدائي إزاء التابو أو الأمور المحرمة، كلاهما ينطوي على تناقض وجداني، فالمبالغة في التحريم والقمع في الظاهر، تخفي رغبة لا شعورية في إتيان الأمر المحرم، لأن كل ممنوع مرغوب، ولو لم يكن مرغوبًا لما كانت هناك ضرورة لتحريمه أو منعه. وأداة التحريم والمنع عند الجماعات البدائية هي السلطة الضابطة في المجتمع ممثلة في رؤساء القبيلة وشيوخها الذين يرغمون أفرادها على احترام الأمور المحرمة. وأداة التحريم والقمع عند المصاب بالعصاب القهري هي القوى الكابتة في العقل أي الضمير أو الذات العليا.

ومثل التحريمات العصابية القهرية، كمثل الأمور المحرمة أو التابو يمكن التكفير عنها بالقيام ببعض طقوس التطهير التي تبدو كالأفعال الوسواسية المتسلطة التي تلح على المريض ويجد نفسه ملزمًا أو مجبرًا على القيام بها، مثل غسل اليدين عدة مرات في اليوم أو التزام نظام معين في الاستحمام والخلع واللبس، إذا حاد عنه بدأ من جديد. وهذه الأفعال المتسلطة التي تتكرر في صورة رتيبة أشبه بطقوس التطهير أو التفكير عن الأمور المحرمة عند البدائيين. وعلى ذلك يمكن تلخيص الخصائص المشتركة بين التابو وأعراض العصاب القهري فيما يلي:

١- عدم وجود دافع شعوري للتحريمات أو النواهي فالعصابي لا يدري شيئًا عن الدوافع التي تجبره على وضع التحريمات القهرية التي يلزم نفسه بها. كما أن البدائي لا يستطيع أن يقدم تفسيرًا واضحًا للأمور المحرمة أو التابو. وذلك لأن الدافع في كلتا الحالتين لا شعوري.

٢- الإلحاح الداخلي المتسلط في التحريمات القهرية وفي الأمور المحرمة أو التابو. وصفة الإلزام والجبر، وشعور الإنسان بقلق شديد إذا لم يراعها بدقة. وتوقع العقاب الذي لا مفر منه إذا حاد عنها.

٣- قدرتها على الانتقال من شيء إلى آخر والانتشار كالعدوى باللمس أو بغيره. فالماورى لا يذوق اللحم الذي نضج في قدر وضع على نار نفخ فيها شيخ القبيلة. والعصابي القهري لا يطيق أن يضع في منزله شيئًا يذكره بشخص آخر صار يكرهه كراهية التحريم، ولا يطيق أن يرى ما يذكره به.

٤- الأمور المحرمة في التابو وفي العصابي القهري تخفي رغبة لا شعورية في إتيانها. فأساس المحظور شيء يمنع ويحرم وينطوي على رغبة كامنة ملحة في استباحته. وكل ممنوع يمنع رغبة.

٥- الأمور المحرمة في التابو وفي العصابي القهري تملى على من تتسلط عليه فعل عمل معين دائمًا لا يستطيع أن يتحرر منه، يتكرر في صورة معينة لا تتغير حتى يصير بمثابة نوع من الشعائر أو المراسيم، ينشأ من الشيء المحرم، ويرمى إلى التفكير عنه.

على أن هناك اختلافات بين التابو والعصابي القهري أهمها:

١- العصابي القهري هو الذي يضع التحريمات والنواهي الخاصة به. فهو يضع لنفسه بنفسه تطيرات أو تابوات خاصة به مستقلة عن الأمور المحرمة السائدة في المجتمع، بعكس البدائي الذي ينقل عن آبائه الأمور المحرمة القديمة المتعارف عليها في قبيلته أو في مجتمعه.

٢- الرجل البدائي يخشى أن يخرق التابو خوفًا من الأضرار الوخيمة التي تقع عليه أو على قبيلته. أما المصاب بالعصاب القهري فهو لا يخاف من أن يقع العقاب على شخصه، بل على أحد أقاربه، أو أحد أفراد عائلته.

لابد أن القارئ قد لاحظ أننا في دراستنا للتطير لم نتقيد بمنهج مدرسة معينة من مدارس البحث في العلوم الاجتماعية والنفسية، وإنما اصطنعنا المنهج الملائم لطبيعة المشكلة، وهو المنهج الذي يأخذ بأحسن ما في مبادئ الأنثروبولوجيا والتحليل النفسي وتجارب الفعل المنعكس الشرطي، بالنسبة لموضوع البحث. فكل من هذه المدارس يلقي ضوءًا على ظاهرة التطير من زاوية خاصة. وعلى ضوء العلاقات الكثيرة التي أوجدناها بين: التطير والفعل المنعكس الشرطي، وبين التطير في مجتمعنا والتابو في المجتمعات البدائية، وبين السحر والتطير، وبين التابو والمرض النفسي، نتناول –في الفصل التالي– بالتحليل المفصل مجموعة من الأمور المحرمة التي ترتبط بمولد الطفل، والتي تعرف باسم الكوفيد.

# الفصل الثامن

## الكوفيد

من العادات القديمة التي كانت منتشرة عند كثير من المجتمعات البدائية والمتخلفة، عادة غريبة ترتبط بمولد الطفل، يطلق عليها علماء الأنثروبولوجيا اسم الكوفيد. فعندما ترزق الأسرة طفلًا، يتصنع الأب القيام بدور الأم، ويعتكف في الفراش بضعة أيام. ويحرم على نفسه كثيرًا من الأمور: فيمتنع عن تناول أنواع معينة من الأطعمة، ويتجنب القيام بأي عمل عنيف، ولا يلمس أي نوع من الأسلحة. أما الأم الوالدة فتقوم بعد الوضع لتمارس أعمالها العادية.

وكلمة كوفيد Couvade مشتقة من الكلمة الفرنسية Couver أي يرقد على البيض ليفقس. مع أن هذه العادة لم تعرف مطلقًا في فرنسا.

والكوفيد عادة قديمة. وقد وصف ديودور الصقلى هذه العادة عند سكان جزيرة كورسيكا القدماء بقوله: عندما يولد طفل لا يهتم أحد بالأم، فبدلًا من أن تستريح بعد الوضع، تقوم لتمارس أعمالها العادية. أما الأب فيلزم فراشه بضعة أيام ويحاط بالعناية. وكذلك وصف ماركوبولو هذه العادة. ففي الصين، عندما تضع الزوجة طفلًا، تقوم بعد الوضع بساعات لتمارس أعمالها اليومية. أما الزوج فيعتكف في فراشه ولا يبرحه لمدة شهر كامل.

وتنتشر هذه العادة في كثير من أنحاء العالم، فتوجد في أمريكا الجنوبية في معظم البرازيل. وكانت معروفة عند الهنود الحمر في كليفورنيا، وعند الدرافيدا في جنوب الهند، وفي ملبار وعند الداياك في جزيرة بورنيو، وفي جزيرة سلبيس، وفي جزيرة لوزون بالفلبين، وفي اليابان. وكانت موجودة في كورسيكا وعند الباسك في شمال أسبانيا. وإذا استعرضنا مدى انتشار هذه العادة، تبينا أنها توجد في أمريكا الجنوبية وفي جنوب شرق آسيا بصفة خاصة. ولكنها لا توجد عند بعض الجماعات البدائية كالأستراليين القدماء أو زنوج أفريقية. كذل لا توجد هذه العادة في المجتمعات الحديثة الراقية. وعلى ذلك يمكن القول بأن الكوفيد يوجد بصفة خاصة عند الجماعات التي تعتبر وسطًا بين الجماعات البدائية القديمة المتأخرة، والجماعات المتحضرة.

وتتشابه طقوس الكوفيد في الجوهر، ولا تختلف بين الجماعات التي تمارس فيها إلا في بعض التفاصيل، كما يتضح من الأمثلة التالية:

في جنوب الهند، عندما تحس امرأة من قبائل الدرافيدا أنها أوشكت أن تضع، تخبر زوجها، فيرتدي عندئذ بعض ملابسها، وينقش على جبهته العلامة المميزة للنساء، ويعتكف في حجرة مظلمة، ويلزم فراشه. وبمجرد أن يولد الطفل يغسل ثم يوضع بجانب والده، الذي يناولونه الأدوية والمشروبات التي تحتاج إليها عادة المرأة التي قامت من الوضع. ومعنى ذلك أن تنصرف العناية إلى الأب بدلًا من الأم.

وفي جزر سليمان في جنوب المحيط الهادي، تمتنع الحامل عن تناول أطعمة خاصة، وقرب نهاية مدة الحمل تقام بعض الطقوس لتسهيل عملية الوضع. وعندما تشعر الحامل باقتراب موعد الوضع تخبر زوجها، فيحضر لها إحدى قريباتها لتقيم معها، ثم يذهب إلى كوخ آخر يعتكف فيه ولا يبرحه مدة ثلاثة أيام. وفي هذه المدة يحرم على نفسه رفع أي شيء ثقيل الوزن، أو لمس سكين أو فأس أو أي آلة قاطعة، لاعتقاده أنه إذا فعل ذلك أضر بصحة الطفل. وفي اليوم الرابع يسمح له بالذهاب إلى كوخ الأم ليرى الطفل. وفي اليوم الخامس يذهب مع زوجته للاستحمام في البحر، ويباح لهما بعد ذلك مزاولة أعمالهم العادية.

وعند الداياك في جزيرة بورنيو، قبل أن يولد الطفل، يمتنع الأب عن تناول الآلات القاطعة أو الصيد أو الأعمال العنيفة حتى لا يؤذي الطفل في بطن أمه. وبعد أن يولد الطفل يعتزل الأب وحده بضعة أيام في كوخه، ويقصر غذاؤه على الأرز والملح حتى لا يؤذي معدة الطفل الوليد!

وعند الهنود الحمر في غيانه، تواصل الحامل أعمالها العادية إلى ما قبل الوضع بساعات قليلة، عندما تذهب إلى داخل الغابة يصحبها لفيف من النساء لتضع. وفي مدى ساعتين أو ثلاث ساعات بعد الوضع تعود إلى ممارسة أعمالها العادية. أما الأب فيلجأ إلى كوخه ليعتكف فيه، ويحرم على نفسه الغذاء المعتاد، ويكتفي بقليل من الفاكهة، كما يمتنع عن التدخين أو الاستحمام. وتقوم على خدمته نساء القبيلة عدة أيام قد تطول إلى أسابيع.

وفي جزر البحر الكاريبي، عندما يولد الطفل تقوم الأم لتمارس أعمالها اليومية. أما الأب فيعتكف في كوخه ولا يبرحه. ويصوم مدة ثلاثة أيام، ثم يحرم على نفسه بعد ذلك بعض الأطعمة مثل لحم الخنزير أو لحم السلحفاة، ولحم الطيور والأسماك، حرصًا على عدم إيذاء الطفل الوليد. وفي نهاية مدة أربعين يومًا، يقبل عليه أصدقاؤه فيدمون جلده بأسنان بعض الحيوانات، وعليه ألا يظهر أية علامة على الألم حتى يشب ابنه شجاعًا، لأنه إذا تألم أو صرخ، فقد يشب ابنه جبانًا. وبعد ذلك يأتون بفلفل أسود مطحون ويدلكون به جسمه في المواضع الدامية.

## تفسير الكوفيد:

يقسم علماء الأنثروبولوجيا المعنيين بدراسة حضارات الجماعات البدائية عادات الكوفيد إلى نوعين:

النوع الأول: هو الكوفيد الذي يرمى إلى حماية الطفل. ويوجد في جنوب الهند بصفة خاصة. وهو يقوم على تحريم تناول بعض أنواع الطعام على الوالدين قبل ولادة الطفل أو بعدها فيمتنعان عن أكل لحم الخنزير أو لحم السلحفاة مثلًا، اعتقادًا منهما أن لحومها تؤذي معدة الطفل. كما يعتقد البدائيون كذلك أنه إذا تناول الأب أو الأم من لحم بعض الحيوانات، فإن خصائص هذه الحيوانات تنتقل إلى الطفل. فمثلًا تعتقد قبائل الهوتنتوت في جنوب غرب أفريقية أن الحامل لو أكلت لحم الأسد، فإن الطفل يكتسب شجاعته. وهناك تحريمات أخرى تسري على الأب، فيحرم عليه تناول الأسلحة، أو الاشتراك في الصيد أو القيام

بالأعمال العنيفة، خوفًا من إيذاء الطفل.

والنوع الثاني: هو الكوفيد القائم على تمثيل الأم، ويوجد في أمريكا الجنوبية بصفة خاصة وفيه يعتكف الزوج ويلازم الفراش بدلًا من الزوجة التي تقوم بعد الوضع لتمارس أعمالها العادية.

ويعتقد البدائيون أن فترة الوضع من الفترات العصبية التي تتيح فرصة مواتية للأرواح الشريرة التي تكون متربصة للأم والطفل متحفزة لإنزال الضرر بهما. ولذلك يتكفل الأب بحراستهما من القوى الغيبية الشريرة، فهو إذ يقوم بدور بديل للأم ويحل محلها، إنما يخدع الشياطين ويضللها. فلا تلتفت إلى المرأة التي تقوم بأعمالها العادية، وإنما تلتفت إلى الرجل الذي حل محلها، باعتبار أنه أقد على احتمالها من الأم.

وهذا التقسيم لسهولة الدراسة. لأنه غالبًا ما يوجد النوعان من طقوس الكوفيد معًا. ويندر أن يوجد النوع الواحد منهما في شكله الخالص المطابق لهذا التقسيم. وكثيرًا ما يختلط النوعان من الكوفيد، فترمى طقوسه إلى حماية الطفل والأم معًا.

يرى فريزر أن طقوس الكوفيد تشبه طقوس السحر ويتعرف فيها على النوعين الرئيسين للسحر وهما: السحر بالاقتران والسحر والمحاكاة. فطقوس الكوفيد التي ترمى إلى حماية الطفل بتحريم بعض المأكولات على الأب تقابل السحر بالاقتران، إذ يعتقد الأب أن ابنه جزء لا يتجزأ منه، وأن ما يحدث للأب، يحدث كذلك للابن. فإذا أكل الأب طعامًا عسيرًا، مرض الطفل أو أحس بألم في معدته. أما طقوس

الكوفيد التي تقوم على تقليد الأب لدور الأم، فترمى إلى تيسير الولادة على الأم، وتقابل السحر بالتقليد والمحاكاة، فيقوم الأب بالتزام سريره حتى يحمل عن الأم آلام الوضع ويحولها إلى نفسه، وكأنما تمثيل الشيء بما يشابهه يحققه، وتقليد الفكرة يؤدي إلى حدوثها.

## تفسير الكوفيد في ضوء التحليل النفسي:

أفرد ثيوردور ريك في كتابه "الطقوس" (Ritual) فصلًا رائعًا عن الكوفيد قدم فيه تفسيرًا لطقوسه في ضوء التحليل النفسي. واتخذ تقسيم فريزر لنوعي الكوفيد الذي يرمي إلى حماية الطفل، والذي يقوم على تقليد دور الأم أساسًا لدراسته.

## الكوفيد الذي يرمي إلى حماية الطفل:

الأمور المحرمة في هذا النوع من الكوفيد تقضي بالامتناع عن تناول أنواع خاصة من المأكولات، وتقييد السلوك بتحريمات أخرى كعدم استعمال الأسلحة أو القيام بأعمال عنيفة. وقد رأينا أن فريزر يفسر هذا النوع من الكوفيد بأنه ضرب من طقوس السحر بالاقتران، فما يصيب الأب، يصيب الابن كذلك. ولكن كيف يضار الابن إذا ما احتطب الأب أو أكل لحم السلحفاة؟

قد تلقى أعراض العصاب القهري بعض الضوء على سلوك البدائي. وعندما يصادف رجال التحليل النفسي مثل هذه التحريمات عند العصابيين، فإنهم يتبينون أن دوافعها اللاشعورية هي النزعات العدائية

الشريرة المكبوتة حيال الطفل، التي تظهر في رد الفعل لها عند الأب في الحرص والإشفاق على صحة الطفل، والمغالاة في الاهتمام به. إن الوسواس المتسلط الذي يحرم على العصابي إتيان أعمال معينة خشية أن يصاب أحد المقربين إليه بسوء تشبه تحريم الأب البدائي على نفسه الأعمال العنيفة أو استعمال السلاح أو تناول أنواع خاصة من الطعام، إشفاقًا على ابنه من أن يصاب بمكروه. ومنشأ التحريم في كلتا الحالتين هو الصراع بين النزعات العدائية القاسية المكبوتة في اللاشعور نحو الطفل من ناحية، والمحبة الواجبة نحوه والعطف والإشفاق عليه في الشعور الظاهر من ناحية أخرى. وقد يكون تحريم الأفعال العنيفة أو تناول الأسلحة على الأب مرجعه اعتبارها أفعالًا بديلة لتحقيق النزعات العدائية القاسية المكبوتة حيال الطفل. وبذلك تكون التحريمات والتابوات الخاصة بالطفل الوليد عند البدائيين، ونظائرها عند العصابيين، منشؤها واحد هو النزعات العدائية القاسية المكبوتة نحو الطفل التي تفصح عن نفسها في المغالاة في الحرص والإشفاق عليه. ويمكن أن نتبين الفارق الهام بين التابو عند البدائيين وعند العصابيين، وهو أن البدائي يتجنب خرق التابو خوفًا من الضرر الذي ينزل به هو، أما العصابي فيمتنع عن إتيان الأمور المحرمة خوفًا من الضرر الذي يحل بأحد المقربين إليه. فسلوك البدائي هو سلوك أناني ينطوي على الأثرة، أما سلوك العصابي فهو سلوك غيري ينطوي على الإيثار.

## الكوفيد القائم على تقليد الأم:

يقوم هذا النوع من طقوس الكوفيد على محاكاة الأب لدور الأم، فيعتكف ويلازم الفراش، بقصد تيسير الولادة على الأم وتخفيف آلام الوضع عنها بمقتضى السحر بالمحاكاة، وكأنما يؤدي تقليد الفكرة إلى حدوثها. وإذا كان الغرض من اعتكاف الرجل هو تيسير الوضع على الأم وتخفيف آلامها اعتقادًا منه في السحر بالمحاكاة، فما الدافع إلى ذلك؟ هل هو خداع الشيطان وتحويله من الأم إلى الأب؟

يبين لنا التحليل النفسي أن الاعتقاد في الأرواح والشياطين إن هو إلا إسقاط[٣] في العالم الخارجي لنزعات العداء والكراهية المكبوتة. فإذا وجد صراع لا شعوري بين نزعات متعارضة كالحب والكراهية نحو شخص معين، فإن مما يخفف من حدة التوتر والصراع إسقاط النزعات العدائية في العالم الخارجي في صورة شيطان.

ويُمكن أن نفترض أن علاقة الرجل بامرأته تقوم على التناقض الوجداني، وتنطوي على الحب والكراهية في آن معًا بحيث يكون الحب في الشعور الظاهر، أما الكراهية أو العداء فتكون لا شعورية. وهذه المغالاة في الإشفاق على الزوجة الأم ومحاولة تيسير عملية الوضع

---

(٣) الإسقاط عملية لا شعورية تشبه العملية التي يقوم بها جهاز العرض السينمائي. فالصورة التي نشاهدها على الشاشة ليس مصدرها الشاشة، ولكنها أسقطت عليها من الفانوس أو آلة العرض. وكذلك الإسقاط في الميدان النفسي هو عملية لا شعورية يتم بفضلها للشخص إخراج ما بداخل نفسه من مشاعر محظورة أو مؤلمة، ونسبة هذه المشاعر إلى العالم الخارجي وكأنها صادرة عنه وليست نابعة من النفس ذاتها.

وتخفيف آلامه عنها بالسحر بالمحاكاة، قد تكون رد فعل لا شعوري يخفي نزعات العداء المكبوتة حيال الزوجة.

كذلك يرى التحليل النفسي أن هذا التقليد وتلك المحاكاة التي يقوم فيها الأب بدور الأم، هي مظهر للتقمص الذي كثيرًا ما نصادفه في حالات العصاب بل في الحياة العادية. وبذلك تكون الدوافع اللاشعورية لطقوس الكوفيد التي تجعل الرجل يتقمص دور امرأته الحامل فيعتكف ويلازم فراشه هي النزعات العدائية القاسية المكبوتة في لا شعوره نحو زوجته. وهذه النزعات العدائية اللاشعورية يقابلها في الشعور الظاهر رد فعل أو تعويض يبدو في الإشفاق والمبالغة في الحرص والقلق على سلامة الأم، والرغبة في تيسير عملية الوضع وتخفيف آلامه بطقوس السحر بالمحاكاة. ويظهر الصراع اللاشعوري في نفس الرجل بين هذه النزعات المتعارضة بصفة خاصة في حالة إشراف الأم على الوضع وتسقط هذه النزعات اللاشعورية الشريرة في الخارج في صورة الشيطان الذي يتربص ويتحفز للإيذاء في هذه الفترة العصبية.

ويتفق هذا التفسير إلى حد كبير مع تفسير فريزر، ويمتاز عنه بأنه يبين الدافع اللاشعوري للكوفيد القائم على تقليد الأم، ولا يقتصر على تفسير أعراضه الخارجية. كما أن تفسير فريزر لا يبين لنا لم يبقى الرجل في فراشه مدة قد تطول إلى شهر أو أكثر بعد انتهاء عملية الوضع، في حين تعود زوجته إلى ممارسة أعمالها اليومية العادية. لو أن الرغض من طقوس الكوفيد كان غرضًا سحريًا لانتهى بانتهاء عملية الوضع. والتحليل

النفسي يفسر استمرار اعتكاف الرجل بأنه تعبير عن استمرار وجود الدوافع العدوانية والصادية اللاشعورية في نفس الرجل، كما أن استمرار اعتكافه قد يهدف إلى حماية زوجته من نزعاته الجنسية الصادية نحوها.

ولا يفوتنا – في ختام هذا البحث – أن نشير إلى حقيقة هامة وهي أن معظم الجماعات البدائية التي ورد ذكرها في هذا الكتاب، قد أخذت بأسباب المدنية الحديثة نتيجة لاتصالها بغيرها من الثقافات والشعوب، فتغيرت معالم حضارتها القديمة، واختفى كثير من العادات والتقاليد والمعتقدات والطقوس التي كانت تميز هذه الحضارات. ولذلك فإن الكثير من الخرافات والتطيرات التي كانت منتشرة بين هذه الجماعات حتى مطلع القرن الحالي، لم يعد له – في الوقت الحاضر – وجود، إلا كبقايا مترسبة في معتقدات الناس، تخلفت من آثار الماضي.

# خاتمة

هذه الرحلة الطويلة في مجاهل التطيرات والتصورات الخاطئة، ظهرت لنا أن التطير يتفشى مع الجهل والتأخر بين السذج والبسطاء من العامة، وينتشر بين الجماعات البدائية المعاصرة، كما أن له نظيرًا في بعض الأمراض النفسية. فهو ظاهرة شاذة والرجل السليم لا يتطير ولا يتشاءم، لأنه ينتظر من الدنيا خيرًا، ولا يتوجس منها شرًا.

إن ضرر التطير لمن خافه وخشى مغبته، وينعدم أثره عند من يغفل شأنه ويسقط من حسابه ولا يبالي به. ولابد أن يؤدي انتشار التعليم والثقافة إلى تبديد سحب هذه الخرافات والتطيرات.

وقد نهت جميع الأديان عن التطير. وهذه الآية من التوراة تنهي حتى عن التفاؤل: "متى دخلت الأرض التي يعطيك الرب إلهك، فلا تتعلم أن تفعل مثل رجس تلك الأمم. لا يوجد فيكم من يجيز ابنه أو ابنته في النار ولا من يتعاطى عرافة، ولا عائف ولا متفائل ولا ساحر ولا من يرقى رقية ولا من يسأل جانًا أو تابعة ولا من يستشير الموتى، لأن كل من يفعل ذلك مكروه عند الرب" تثنية، إصحاح ١٨.

وكان التطير شائعًا عند الكثيرين من العرب في الجاهلية حتى تكدر بذلك عيشهم وفسد دينهم وتفتحت عليهم أبواب الوسوسة.

فلما أقبل الإسلام نهى النبي عليه السلام عن الطيرة فقال: "لا طيرة ولا هامة ولا سفر".

وعن بريدة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يتطير. وذكرت الطيرة عند رسول الله فقال: "من عرض له من هذه الطيرة شيء فليقل: اللهم لا طير إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك، ولا إله غيرك. اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بالله".

# الفهرس